غرائب الغرب
محمد كرد علي
الناشر
مكتبة ومطبعة الغد

غرائب الغرب

تأليف:
محمد كرد علي



٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة - ج . م . ع
تليفاكس / ٣٢٥٠٢٠٢

اسم الكتاب : غرائب الغرب.

المؤلـــف : محمد كرد على.

الغــلاف : حسين المجدولية

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٥٥٦٧

الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977 - 348 - 098 - 4

الطبعة الأولى: مايو / ٢٠٠٧م

ربيع ثاني ١٤٢٨هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة



٢٣ شارع سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة ت ٣٢٥٠٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وثقفته عنه وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها من تلك المدينة الساحرة إلا بقدر ما تصل إليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل، راجيًا من كرمه تعالى أن ينفع بها قرّاء العربية، ومنه أستمد العون والتيسير.. نعم المولى ونعم النصير

المؤلف

الرحيل من دمشق إلى لبنان

١

كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل إلى أوربا رحلة علمية أقضي فيها رِدحًا من الدَّهر للتوفُّر على دارسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة الغازون والتجار والصناع والزراع والماليون، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها.

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن تمامه، وتحول دون البُغية المنشودة إلى أن قدَّر الله فأقام والى سوريا السابق تلك القضية الملفقة على جريدة «المقتبس»، واحتال انتقامًا لنفسه لإقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي، فقلت الآن حان وقت الرحلة في طلب العلم تتفرَّغ لتحقيق ما في الخاطر ريثما يتبين الحق من الباطل والحالي من العاطل، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم.

في الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان ١٣٢٧ ركِبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين قاصدين قرية «القابون»، وفي ظاهرها وقفنا لحظات إلى أن وصلَت فرسي ووصل صديق لي آخر راكبًا فرسه، فركبنا وعاد ذلك الحبيبان إلى المدينة، وكان بدأ في تلك الساعة الإشراق في الأفق، والسكون لم يبرح مستحوذًا على الأرباض والرياض، ولم نكن نسمع من بعيد

غير قعقعة أجراس الطحَّانين والمكارين وصياح الديكة و عواء الكلاب، وما كدت أعلو متن مطيتي حتى ترامى إلى مسمعي صوت مؤذن «القابون» ينادي: «هلمُّوا إلى طاعة الله، يرحمنا ويرحمكم الله» .. فقلت كلمة حق: «لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها لرُحموا، ولكنها جُمل جميلة تُقال ومعانٍ شريفة لا يُعمل بها، وعادات ألفت بمعزل عمَّا فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد.

التفت إلى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة، وهي أحب بقعة إلى قلبي في الأرض، وقد كثر في أفقها شفق الفجر، فذكرت طرفًا من أيامها البيض والسود، ذكرت الغوطة المحبوبة، وذكرت مطامع البشر وانحطاط أخلاقهم وعقولهم، فقاد ذلك إلى التفكر في شقاء الإنسان بالإنسان، وموت بعض لحياة كل، وافتقار مئات لإغناء أفراد، وشقاء ربوات لسعادة عشرات، وتعب فريق لراحة أُمة .. فتمثَّل لي عجيب صنع المولى في خلقه سبحانه لا يُبقي العالم على حال، هو المعز المذل القابض الباسط المغني المفقر، يقلب الأرض ومن عليها ولا يرثها إلا عباده الصالحون.

سارت بنا مطيَّتانا، فاجتزنا قرية «برزة» و«معربا»، ولم تشرق الشمس إلا وقد قطعنا أراضي معربا وأشرفنا على أكماتها فالتفتنا إلى ما وراءها وقد تجلَّت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال فألقينا عليها نظرة الوداع، وأغذذنا السير إلى بسمية ومنها إلى دير مقرن، فـ«كفير الزيت»، فـ«دير قانون»، فـ«كفر العواميد» وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر.

ولم أشهد في هذا الوادي – وكنت مررت به راكبًا منذ ستة عشر عامًــا – شيئًا من التغيُّر والارتقاء المحسوس، فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة إن سلمت أشجاره من لفحات الجليد يرتاش تلك السنة ويعتاش برمانة وجوزه وتفاحه وكمثراه وتينه وعنبه، وإلاَّ فيضطر في الأكثر إلـــى لاســـتدانة علـــى الموسم المُقبل وإن كان على شيء من القوة والجلد إلى بعض الكور المجاورة كقرى وادي العجم أو الغوطة يُعمل فيها أشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤنة تكفيه من الحنطة في كنِّه وكانونه.

وذلك لأن هذا الوادي منذ قرية «دمر» حتى سوق «وادي بردي» لايغــل من الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة لغلبة اليبوســـة علـــى جـــروده وجباله، ولأن أكثر تربته صخرية تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة لتأتي أكلها، أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي يُنتفع بها الفلاح هنا فالفضل لـــ«نهر بردي» في إروائها يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته أو أكثر.

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتي أصحابها بأرباح أكثر من السنين الســـابقة، خصوصًا منذ تمَّ استثمار السكك الحديدية في سوريا كــــ«ســـكة بيـــروت – دمشق – حوران»، و«سكة دمشق – حيفا – المدينة»، و«سكة دمشق – حلب – بيره جك(البيرة)» فأصبحت ثمارهم تصدر إلى الجهات القاضية، وكـــانوا يقدمون أكثرها في سني الخير علفًا للدواب أو يلقونها في الطريق لأن العطلة في نقلها من محلها إلى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقـــوم بـــأجرة المكار ودابته.

نعم، لم أرَ ارتقاءً محسوسًا في حالة فلاح «وادي بردي» وأنى يتم له ارتقاء وليس له طريق يسلك غير ما حفرته أقدام المارة وحوافر الدواب والماشية وجرفته السيول والرياح منذ قرون، فالطرق المُعبَّدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي، ولعلَّ ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة، فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لأقضية بعيدة .. أمَّا الآن بعد أن غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات فقد بات يُرجى - بفضل قائمقامه الغيور أن تنتظم لأهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ليتيسر للناس الغدو والرواح من أيسر السبل، وما أخال ذلك متعذِّرًا على الحاكم إذا حثَّ أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم لتمهيد طريقهم أيام انقطاعهم عن العمل كفصل الشتاء مثلاً، لما يعرفون من الفوائد التي تجم لهم عنها أو يعلمونها بواسطة الموظفين الأمناء، وإن كانت هذه الطريقة لا تخلو من محظور لأنها تؤدي إلى السُّخرة، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي، وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة.

وبعد، فإنه لا وجود في وادي بردي لسائر المرافق التي يتمتع بها الفلاح في البلاد المتمدنة، وذلك لأن الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاَّح إلا أن تأخذ منه لا أن تهيئ له سبيل الأخذ، فكان قصاراها تكثير الجباية وتوفير الضرائب وأخذ من تريده للخدمة العسكرية، أمَّا إمتاع الآهلين بالوسائل الصحية وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ وفتح سبل المواصلات ورفع علم الأمن وتعليمهم الضروري من القراءة والكتابة فكانت

أمورا لا تعرفها، لا في «وادي بردي» فقط بل في جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها.

ومن أغرب ما رأيناه في «وادي بردي» أن بعض قراها تحفر القبور لموتاها أمام الدور فترى حي الأحياء مع حي الأموات، وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصًا على رفات موتاهم من أن تسطو عليها الوحوش الكاسرة في مدافنها إذا لحدوها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات، أو أنهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الإنسان إلى دار البقاء ويزهدوا في دار الفناء فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء.

ومما عمت به البلوى في الفلاحين أنك ترى القاذورات أيضًا تُعمي العيون وتخنق الأنفاس، فترى روث البهائم وغائط الآدميين وسط الدور وخلفها وقدامها وعن أيمانها وشمائلها، ولولا بقية من عادة النظافة والتطهُّر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم، وشيء من جودة الهواء في الجملة في القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الإقليم ومن حوله.

ركبت صبيحة العيد ورفيقَي قاصدين سوق «وادي بردي»، ولعلها سُميت كذلك لسوق كانت تُقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة في أسواقنا الباقية حتى الآن، فيقال مثلاً «سوق الأحد» و«سوق الجمعة» و«سوق الخيل» و«سوق الحمير»، ولهذه الأسواق أمثال في أوربا، وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه إلى من فسخ وادي الزبداني .. وجبال السوق لا تخلو من نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام.

ومن السوق انتهى بنا نفس السير إلى قرية عين الفخار من أعمال البقاع العزيز، وهي القرية التي اشتُهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من أعمال دمشق.

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطللنا على «عيتا»، ورأينا بيوت القرميد التي بُنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهده في أكثر بيوت سوريا، وعلمنا أن سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في «عيتا» تلك الأموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم إلى أمريكا، وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسُّكنى ثانية في «عيتا» أن يظهروا غناهم بإنشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربي «أبت الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها»، «إن الغني طويل الذيل مياس» أو الأثر المشهور «إن الله يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده» وليس كالبيوت تنم عن يسار وتدل على سعه، وبعد «عيتا» مررنا بـ«كامد اللوز» فـ«جب جنين» فـ«لالا» فـ«بعلول» من وادي البقاع، وفي هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا، ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالعريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

وقد سرّت إلى هذه القرية وإلى جميع قُرى البقاع عدوى الهجرة، وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم، ومن حديث كثير من البقاعيين تبيَّن أن أهل كل قرية في الغالب يؤثِرون في بلاد المهجر إقليمًا خاصًا لهم يُنزلونه، أو مملكة يوجهون وجهتهم إليها، فيقصد مثلاً أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي أمريكا، و أهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرون

ينــزلون كندا وغيرهم أستراليا، وفريق السنغال وبعض الترنسـفال، فكـأنَّ عدوى الانتقال تسري إليهم بالعشرة، فلا يُحب المواطن لا أن يُقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه، بل في شقائه وسعادته. وقد ذكّرنا هذا بحال الغرب في الفتح وبعده، فكان القسيسون ينـزلون بلد كذا، واليمانيون إقليم كذا .. ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الأندلس كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جنـد حمص، ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينـزلونه باسـم بلـدهم الأول كمـا يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في الولايات المتحدة.

وفي اليوم الثالث قصدنا «مشغرة» فمررنا بجسرها المخرَّب الممتد علـى نهر الليطاني، وأنجدنا قاصدين «جزين» أول حدود لبنـان إلـى الجنـوب، و«مشغرة» أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع العربـي، وهـي مشهورة إلى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينـة «زحلـة» أو أكثـر، والمسافة بين «مشغرة» من أعمال ولاية سوريا و«جزين» من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ثم تتحدر في وادٍ عميق.

ومع أن قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سوريا بزراعته لخصب تربته وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشـرقي ومتاخمتـه لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار، ومـع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة .. ومنهم من أنشأ فيه حقولاً نموذجية حقيقية، وصرفوا عليها الأموال الطائلة، واستخدموا لهـا أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيـب بـك سرسـق فـي «عميق» و«دير طحنيش» وأقامها الآباء اليسوعيون في «تعنايل» مع كل هذا العمران المستبحر، وما تأخذه النافعة من أموال الآهلين كل سنة باسم الطرق

والمعابر لا ترى في القضاء طريقًا مسلوكًا اللهم إلاَّ طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما نُشئ خط بيروت الحديدي، وقيل لنا إن الحكومة صحَّ عزمها مؤخرًا على إنشاء طريق عجلات بين «المعلقة» مركز القضاء وبين «مشغرة» في غربه، وإن هذا الطريق وصل أو كاد إلى قرية «عيتنيت»، ولعلَّه يكون جسمًا لا اسمًا كأكثرا الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات، فكانت لفظًا بلا معنى واسمًا بلا مسمًّى، لم ينشأ عنها إلا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الأوطان!.

وصف لبنان الطبيعي

٢

كنت في لبنان أُشبِّه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح السكندري، أحتاج إلى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروي كل منهما لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطُرات إلى الظهور فيها لأنجو من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع، وليتيسَّر لي درس حالة البلاد بدون حجاب.

فقد قيل «اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك»، ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الأذكياء، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطاف بينهم أو سائح في جبالهم والوقوف على مقصده ومبلغ ثروته والدين الذي يدين به، وربما كان سؤالهم عن الأخير قبل كل شيء، لأن عامتهم مُتدينون جدًّا، فهم يسرون إذا شعروا أنهم يتعارفون إلى رجل يشاكلهم في المعتقد، وأنَّى لمن قضَى عليه شدة إخلاصه في خدمة وطنه ودولته أن يصرح لهم بهويته وهو مشرد طريد محكوم عليه بالجناية حكمًا قراقوشيًّا.

ودَّعني رفيقي غداة وصلنا إلى «جزين»، وعاد إلى «الفيحــاء»، وبقيـت وحدي لا رفيق لي إلاَّ كتابي وفرسي، فانقلبت لساعتي من «جزين» قاصـدًا «دير القمر»، فاجتزت إليها «تاتر» و«عماطور» و«المختــارة» وغيرهــا، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغابة تمشــي فيــه وسـط أشجار الزيتون .. وهي غابات غبياء في الشوف، كما أن أشجار الصـنوبر كذلك في قضاء المتن، ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت إليه قبيـل الغروب وقد بدت «القصبة» بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حُليها، وعكسـت شمس الأصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطــت الحمــرة بالصــفرة بالخضرة بالزرقة، فكان أجمل منظر تقع عليه عين إنسان، وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحبَّبون إلى الغريب كيف كانت حاله، وفي هذه القصة إلى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمــراء لبنان وألاَّ يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وإن لـم يكن له من يُقيم فيه الصلاة.

وقصبة الدير بكثرة سكانها وتوفر مرافق الحياة فيها أشبه بالمــدن منهــا بالقرى، وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل إليها من حوران فتــوزع فــي الأطراف، وليس «دير القمر» وحيدا في نوعه باكتظاظ الأقدام فيه؛ فمدينــة «زحلة» لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة، وأوصــل بعضــهم نفوسها إلى خمسة وثلاثين، وتكثر النفوس فــي «حمانــا» و«رأس المــتن» و«برمانا» و«بيت مري« و«بعبدات» و«بيت شباب» و«بكفيــا» و«بســكتا» و«بعبدا» و«الشوير» و«حصرون« و«الشويفات» و«حدث الجبة» و«بعقلين» و«مجد المعوش» و«عالية» و«معلقة الدامور» و«جزين» و«جبيل» و«أهمج»

و«تنورين» و«عمشيت» و«عزيز» و«جونية» و«كفر ذبيان» و«البتـرون» و«اهدن» و«الهرمل» و«أميون» و«زغرتا» و«كوسبا» وفي غير ذلك مـن القصبات التي يعد فيها النفوس بالألوف والمئات.

والقرى والمزارع مُتصلة خصوصًا في المحال التي ترتفع كثيرا عن سطح البحر، وإلاّ يُتعذّر العيش فيها في الشتاء لكثـرة ثلجهـا وبردهـا وجليـدها وأعاصيرها .. وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسـعمائة وسـتة خمسين قرية إلاّ بقصر فخيم جميل واسع الأرجـاء محفـوف مـن أطرافـه بالرياحين والأزاهير العطرية وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع لا يكـاد المتجول يمل من مقصورة حتى ينتقل إلى أخرى، وما أسرع وصوله إليها من تلك الطرق المُعبّدة وهذا القصر مزدانة أثنيته وأروقته بأقصى ما تخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيرًا في تعهده.

معني «لبنان الأبيض» وهو اسم عبراني سُمي به لتعمم قممه بـالثلج فـي الشتاء والربيع وبعض الصيف، وقد ورد ذكره في الشعر القديم فقال النابغـة الذبياني:

حتّى غدَا مِثلَ نَصلِ السّيفِ مُنصلتًا

يَقرو الأمَاعزَ مِن لُبنَانَ والأكَمَا

وقال احمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسى مـن المحدثين :

دَعُونِي لُقًا فِي الحَربِ أطفُو وَأرسُبُ

وَلاَ تَنسِبُونِي فَالقَوَاضِبُ تَنسِبُ

وَإنْ جَهلَتْ جُهّالُ قَومِي فَضَائِلِي

فَقَدْ عَرَفَتْ فَضْلِي معدٌ ويَعرُبُ

وَلاَ تَعْتِبُونِي إذْ خَرَجتُ مُغَاضِبًا

فَمِن بَعضِ مَا بِي سَاحِلُ الشَّامِ يَغْضَبُ

وَكَيفَ التِذَاذِي مَاءَ دِجْلَةَ معرقًا

وَأمواهُ لُبنَانَ ألَذُّ وَأعْذَبُ

فَمَالِي وَلِلأيَّامِ لاَ درَّ درُّهَا

تَشرقُ بِي طَورًا وَطَورًا تَغرُبُ

وأنشد المتنبي في مدح أبي هارون بن عبد العزيز الأوارجي من قصيدة:

بَينِي وَبَينَ أَبِي عَلِيٍّ مِثْلُهُ شمُّ الجِبَالِ وَمِثلُهُنَّ رَجَاءُ

وعقَابُ لُبنَانَ وَكَيفَ بِقَطعِهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيفُهنَّ شِتَاءُ

ولو تأمَّل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين «صيدا» و«مشغرة» لوجده يزيد عن ٢٩ كيلومترًا، وهو يبلغ بين «بيروت» و«قب إلياس» ٣١ كيلومترًا، ومعظم اتساعة بين «طرابلس» و«الهرمل» ٤٦ كيلومترًا .. فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين.

ولقد قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر، يحدُّه جنوبًا «صيدا» وأعمالها، وشمالاً «طرابلس» وكورتها، وشرقًا ولاية سوريا، وغربًا البحر المتوسط ومدينة بيروت، هذا هو حدُّه الجديد، وهو المعروف بـ«لبنان الغربي» والأصل في التسمية، ويطلقون اسم «لبنان الشرقي» على وادي التيم وجبل الشيخ حرمون، أي على قضاءي «حاصبيا» و«راشيا» وما اليهما، والبقاع فاصل بين اللبنانين .. وحدُّه القدماء فقالوا: إنه جبل مُطلٌّ على «حمص»، يجئ من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام، فما

كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحماة وحمص لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة فيسمَّى هناك «اللكام» ثم يمتد إلى «ملطية» و«سميساط» و«قاليقلا» إلى بحر الجزر فيسمَّى هناك «القبق قال» .. وفي لبنان سبعون لسانًا لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلا بترجمان، وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير أن يزرعها أحد، وفيه يكون الأبدال من الصالحين، وقال القلقشندي: .. ثم يمتد لبنان إلى الشمال ويجاور دمشق، وإذا صار في شماليها سُمِّي «جبل سنير».

وعلى ذكر الصالحين نقول إن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس إلى العبادة فيه .. قال ابن جبير في كلامه على العلم والمعلمين في الشام في القرن:

مُشْرِفَاتٌ عَلَى دِمَشْقَ وَقَدَاءَ رِضٌ مِنهَا بَيَاضُ تِلكَ القُصُورِ

وقال الجغرافي أليزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان: إذا ما ألقيت ببصرك من البحر إلى سلسلة لبنان المستطيلة رأيت من هذا الجبل منظرًا مهيبًا، فيلوح لك أزرقًا أو ورديًا في الصيف، ومشتملاً في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي، وإذا تصاعدت الأبخرة في الجو ألبست قممه الشامخة ثوبًا شفَّافًا هوائيًّا غاية في اللطف .. بيد أن جمال هذا المنظر لا يخلو من سطوة الشدة، فترى ذاك الجبار يتمطَّى بضلوعه الشديدة، وينطح برأسه الشامخ، لا يقوم في وجهه قائم على أن النظر إلى محاسن هذا الجبل عن كثب هي دون جماله عن بعد، فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلومترًا أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة، أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قُدَّت على قالب واحد.

وقال الأب لامنس: إن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور، وجهته من الجنوب الغربي إلى الشمالي الشرقي، وفي الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة، أمّا من جهة الغرب فهو يتفرّع فروعًا متعددة على هيئات شتّى من آكام وبطون وسهول ورُبى متسلسلة يدخل بعضها في بعض، وإذا استثنيت هذه التفرّعات الثانوية والتجعدات غير المتسقة تحقّقت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية وجانب كبير من البساطة، ولذلك قلما ترى في لبنان تلك المناظر المتباينة التي تقر بها العين، وإنما يقع البصر على حاجز كبير في حدود الأفق يتواصل على خط مستقر لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه.

ووصف شكله أيضًا فقال: ومن تفرّع الجبل من الجنوب إلى الشمال السادس للهجرة ما نصه: وكل من وفّقه الله بهذه الجهات من الغُرباء للانفراد يلتزم أن أحبَّ ضيعة من الضياع فيكون فيها طيّب العيش ناعم البال، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة، ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء .. ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى أو يصعد إلى جبل لبنان أو إلى جبل الجودي فيلقى هناك المريدين المنقطعين إلى الله عز وجل، فيقيم معهم ما شاء وينصرف إلى حيث شاء، ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ويقولون: «هؤلاء من انقطعوا إلى الله عز وجل، فيجب مشاركتهم» .. وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا، فيه أنواع الفواكه، وفيه المياه المطردة والظلال الوارفة، وقلّ ما يخلو من التبتّل والعبادة ..

وقال ابن بطوطة في القرن الثامن: إن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا، فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزُّهاد الصالحين، وهو شهير بذلك، ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمهم.

قلنا: ولذلك نرى المعروف اليوم بـ«الإحصاء» إن في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة، لهم ١٨ ديرًا ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها، ولا يقل دخل الرهبنات والأديار فيه عن مائة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكَّد بعض العارفين، وهو نحو ثلث إيراد لبنان بأسره، وفيه المحابس التي ينقطع فيها إلى النُّسك بعض الرهبان فيقيمون في مغارة أو مكان منفرد يتعبَّدون في الخلاء .. زرت أحدهم في مديرية «القاطع» فرأيته متوفرًا على «كرْم» له هناك حتى جاد وأخصب، يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج، ويصرف شطرا من وقته في النسك والصلاة .. ولو قام كلُّ أمريء بالواجب عليه فسعى للمعاش سَعْي هذا الحبيس وعبدَ الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل أحتياجنا للحكومات وقوانينها، وهذه المحابس قديمة في لبنان ترد إلى عهد «هيلاريون» الناسك أو قبله .. وفي «عدلون» بين صيدا وصور على مقربة من «صرفند» عند الجسر صخر عال حُفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم.

وبالنظر لتوسط لبنان من سوريا كان نافعًا بعمرانه لها بطبيعية، فكان علو قممه - وأعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ مترًا، ثم في الوسط جبل صنين وعلوه ٢٨٠٦ مترًا، وأعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٠ مترًا - وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية إلى كثرة الثلوج والأمطار فيه،

فيتكون من عصاراتها ومسايلها أنهار ذات شأت عظيم في عمران الشام، فمن سفوح لبنان تنبجس أعظم أنهار سوريا، فنهر العاصي الذي يروي أراضي وادي حمص وحماة وإنطاكية ينبجس من «الهرمل» في شمالي لبنان، ونهر الليطاني الذي يروي بلاد صيدا وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان، ونهر طرابلس المسمّى بنهر «أبي علي» ويُعرف قديما بـ«قاديشا» يخرج من سفح لبنان، ونهرا الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينة بيروت وضاحيتها ينبجسان من السفح الغربي من لبنان، ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضًا، ومن لبنان الشرقي ينبجس الأردن «الشريعة» كما ينبجس من غرب لبنان الغربي نهر إبراهيم.

فلبنان في فائدته لسوريا أشبه بجبال الألب في سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع، وللألب والنيل المثل الأعلى، وفي لبنان عدة ينابيع منها نبع الأربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا، وقد زرت هاتين الأخيرتين.

وصلنا إلى الباروك في زُهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفي، وكفر نبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في وادٍ منفرج قليلاً تنبع عينها على قيد غلوة منها، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها، فتوفر لهم بذلك إلى جودة الماء - التي ما بعدها جودة فيما أظن - طيب الهواء ونسيم الأرز والصنوبر العليل البليل، ومن الباروك إلى عين زحلتا ساعة على الراكب، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين إليها للتمتع بنبع

الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها، ولتسريح عيونهم بجمال موقعها وخصب واديها وحراجه الغبياء، وعين الباروك وعين زحلتا علـــى مســـاماة واحدة في العلو، وماؤهما يكاد يكون متشابهًا، والطريق من عين زحلتا إلـــى عين صوفر مارًا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربـــة أو على الراكب، وهذه العيون يُنتفع بها كلها في سقي الحدائق في القُرى البعيـــدة والقريبة.

ومن صوفر قصدت «حمانا» و«قرنايل» فـ«صـــليما» فـــ«عبـــدات» فـ«بحنس» فـ«بكفيا» فـ«بيت شباب» فـ«الشاوية» فـ«الفريكة»، وهنـــا قضيت مع صديقي الأبر أمين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشـــهير أيامًا رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدًا القطر المصري فأوربا، هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى «كســـروان» و«البتـــرون» و«زحلة»، فاكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الأقضية الثلاثة الأخرى وهي «جزين» و«الشوف» و«المتن» خليقًا بأن أتكلم على الجبال خصوصًـــا ولم ينقصني منه إلا قضاء الكورة فقط.

نبذه في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه معقلاً حصينًا، كل من سـادة يكون في الأعم من حالاته إلى الشدة والمضاء، يُتعب من يسودهم وقد يُتعب به جيرانه من أهل البلدان الأخرى، ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعًا للغريب، ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام.

والغالب أن قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله، واستولت عليه حكومة الأيتوريين العربية في عهد الروم، والأيتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب، انكفأ من «حوران» و«اللجاه» بلاده ونـزل البقاع فأنشأ لـه مدينة «شالسيس» أو «عين جر» جعلها عاصمة، وأخذ يشن الغـارات علـى لبنان ويتقدم إلى الأمام حتى تيسَّر له أن تسوَّر قممه وأخضعه لسلطانه، ثـم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزًا ثانيًا، وأكثر من كـانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت، فلم يكونوا يملكـون معهـم لأنفسهم طولاً ولا حولاً.

نعم، خضع هذا الجبل للفاتحين، واستولى على زمامه «المردة»، وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غـزوات الأيتـوريين، فنـزل المردة في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة، ثـم جـاء التنوخيـون ونـزلوا جنوبيه، وتوالى عليه الأمراء المعنيون، فآل عساف التركمان، ومن سلاله المعنيين الأمير فخر الدين الذي عَهد إليه السلطان سليم فـاتح سـوريا ومصر بولاية الشام، ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المالطي الثاني، ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سنتين في القرن العاشر فيما ذُكر.

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القـرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل، فيخطفون المسـلمين ويبيعونهم من الأعداء، فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين - أو الظنينين كما سمَّاهم أبو الفداء - وجيوش التتار التي انهالت على هذه البلاد كالسيل العرم، إن نجا المسلم من التتري لا ينجو من الكسـرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الإسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة، فلمَّا لم ينجع النصح فيها قاتلتهم الجيوش الشامية قتالاً هائلاً بزعامـة جمـال الدين قوش الأفرم نائب دمشق، والغالب أن سـكان كسـروان كـانوا إذ ذاك خليطًا من النصيرية والموارنة وغيرهم، كما كان سكان ساحل كسروان مـن اليعاقبة.

وما زال نواب الشام الأشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد ابن قلاوون يحاربون النصيرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بـدلهم قومًـا مـن التركمان في بعض النواحي، وبقى كثير من المتاولة معهم كما فعل صـلاح

الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان – ولاسيما جبيل وأعمالها – من أيدي الإفرنج سنة ٥٨٣، فرتّب في جبيل قومًا من الأكراد لحفظها، فبقيت على ذلك إلى سنة ٥٩٣، فباعها الأكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها، ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الإفرنج بعد صلاح الدين، لأن الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال.

ولذلك أمر حسام الدين «لاجين» نائب دمشق بأن تخرب بلادهم، فخُربت على عهده وعهد غيره من حكامها، ولاسيَّما على عهد الأفرم – كما تقدَّم – إذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرَّقوا في البلاد.

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم بثلاثمائة فارس، وجعلوا دركهم من حدود انطلياس إلى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس، فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب إلا بورقة طريق من المتولي أو من أمراء الغرب – كما يفعلون بقطية على درب مصر – وجعلوا التركمان ثلاثة أبدال كل بدل يُقيم في الدرك شهرًا لحفظ المواني والدروب، وفي سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الأمراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون إلى جمال الدين وزين الدين بن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر إلى جهة كسروان والجردان، يتوجَّها إليه بجموعهما وأسرتيهما، وأن من سبى امرأةً منهم كانت له جارية، أو صبيًا كان له مملوكًا، ومن أحضر منهم رأسًا فله دينار .. وإن سنقر توجَّه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم، وهذه الفقرات

على شدَّتها لم تصدر عن أمراء الشام إلاَّ بعد أن طفح كأس صبرهم من تمرُّد الكسروانيين.

واختلف العلماء في أصول سكان لبنان، والأرجح أنهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب، مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجًا واحدًا كما هو حال معظم البلاد، فإنك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نــزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران في الداخلية – ولاسيِّما في القرون الخمسة الأخيرة – ذكر المؤرخون أن معاوية نقل إلى طــرابلس وجبيــل وبيــروت وصيدا قومًا من الفرس يسكنونها، وذكروا أيضًا أن أبــا جعفــر المنصــور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الأميــر أرســلان وأخوه الأمير منذر بجماعة من عشيرتهما، فطابت نفس الخليفة بهما، فأمرهما أن يسكنا في جبال بيروت الخالية من السكان، وأنعــم عليهمــا بمقاطعــات معلومة، فسكنوا وبعضهم في كسروان، وأخــذوا يشــنون الغــارات علــى مجاوريهم، وفي بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى، وتقوّى الأمــراء الأرسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر في الشويفات وجوارها.

أمَّا الموارنة فكان أول منشأهم في شمالي سوريا في الأغلب، ينتسبون إلى قديس لهم اسمه «مارون»، وهم طائفة كاثوليكية لا يكــادون يختلفــون عــن الكاثوليكية في أمر جوهري في المعتقدات، جاءوا شمالي لبنــان أولاً، ومــا زالوا يمتدُّون ويطردون سكان الجبال الأصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم في حملتهم حتى بلغوا الجنوب، واحتفظ الدروز ببلادهم بما فــيهم مــن الشــدَّة والإباء.

وزعم بعضهم أن الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لأنه لا يوجد بين أديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع عشر، وأن جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا إليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد، إلا أن هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم لهم وثباتهم معهم على العهد إلى النهاية حتى خرجوا من سوريا سنة ١٣٠٢ م، ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل «أهدن» و«بقوفا» و«حصرون» و«كفر سارون» و«الحدث».

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات، يقوى اليمانيون تارة والقيسيون أخرى، والناس معهم في أمر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير فخر الدين المعني القيسي وجمال الدين الأرسلاني اليمني، قال المقريزي: «وعشير الشام فرقتان: قيس ويمن، لا يتفقان قط، وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض».

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة إلى «يزبك» جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه، والجنبلاطي نسبة إلى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر، وذلك سنة ١٧٢٩-١٧٥٤، وامتدَّ في لبنان ولم يزل له أثر .. كما نشأت أحزاب أخرى كـ«المعلوفي» و«الكارمي» ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدوث فتن تُهرق فيها الدماء وتكثر الأيامى والإماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد «جبيل» و«البترون» فخُربت جميعها ونزح سكانها إلى بلاد

«ابن معن» وكانت العداوة بين بني سيفا وبني معن سببًا في تخريب الجبل أيضًا.

ومن الوقائع التي يُتمت فيها الأطفال تلك الواقعة التي جرت في القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرّة السلطانية من «جون عكا» بينما كانت محمولة إلى الآستانة، فجمع إبراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب، وقدم بها إلى مرج عرجموش قرب زحلة، وأمسك طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الأمراء.

وما زالت حال الجبل في إقبال وإدبار، تقع اليوم فتنة العاقورة وغدًا وقعة مرحلاتا وبعده واقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول، وبعد ذلك واقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة١٨٤٢ عمر باشا النمساوي واليًا، فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية إلى مقاطعات، وتُعرف الأولى بـ«قائممقامية النصارى» وهي الشمالية، تمتد من نهر البارد في عكا إلى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت، تولاًها الأمير حيدر إسماعيل اللمعي، وتُعرف الثانية بـ«قائممقامية الدروز» وهي الجنوبية، تمتد من طريق الشام إلى منتهى جبل الريحان في الشمال مع قرى إقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت، وتولًى شئونها رجل من قِبل والي إيالة صيدا، وكانت قائمقامية الدروز تشمل قضائي الشوف وجزين وقسمًا من غربي البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلية اليوم في قضاء المتن، وفُرض على لبنان في كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس.

ودام الحال على ذلك إلى سنة ١٨٦٠ حيث اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشئومة بين الدروز والنصارى في لبنان، فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً إداريًا بأن جعلته متصرفية يتولى شئونها حاكم مسيحي، تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تُجدّد انتخابه بمصادقة الدول، وجُعل مال لبنان سبعة آلاف - أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش - وُضعت على الأعناق.

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية، منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الأراضي الأميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات، وتعدل بثلاثة عشر ألف ليرة، ولا تتناول الدولة الآن شيئًا من مال الجبل ولا تعطيه، وكانت منذ سنين تدفع إليه العجز في ميزانيته، وفي لبنان ألف جندي لبناني بإدارة أميرالاي لبناني، وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان.

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تُزيد الضرائب قليلاً ليتيسَّر لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وُسّع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور، إلاّ أن معظم الآهلين يقاومونها، وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعادلها اليوم إلا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الأسعار، وهم يعتبرون أن هذا العمل إخلال بشروط امتيازاتهم، ويخافون أن يتدرَّج الأمر إلى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن .. من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا إلى مجلس الأمة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم، وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر إخوانهم العثمانيين في الغنم والغرم، فليس من الإنصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد، ويُحسب

جزءًا متممًا من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلّبت الحال وتعدّدت المظاهر والأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع، بل غاية ما فيه من الأراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسايل صغيرة، وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم، وأكثر الأراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الأرض في الأكثر، وليس في الأيدي نص قديم يُشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذه سالفة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه، وهو كلام مُجمل لا يُشبع ولا يُقنع، وإذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة.

ولكن لم تخلُ أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجو واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة، والزان والسنديان والسرو والأرز من الأشجار غير المثمرة، وقد أكثر القدماء

والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرّات، ولأن من خشبه بُني قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جُدِّد في أيام «زربابل»، وسقف الهيكل المُجدَّد في عهد «هيرودوس»، وقبة القبر المقدس، وسقف الكنيسة في بيت لحم، وقالوا إنه ثبت أن ملوك الآشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الأرز، وأن المصريين أدخلوا خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس، وأن الإسكندر المقدوني وضع من خشب الأرز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور، وكذلك ملوك السلوقيين في سوريا أدخلوا خشب الأرز في بناء دورهم.

وكل هذه الأخشاب قُطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له، وكانت تُحمل في الغالب إلى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات، وقد أنشأ بعض ملوك الإسلام أساطيل من خشب الأرز، وقالوا إن بيروت كانت دار صناعة دمشق (ترسانتها أو ورشتها)، وبها عمَّر معاوية المراكب وجهَّز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام (واسمها العميصاء)، وقيل إنه عَمَّر من الأرز ألفًا وتسعمائة سفينة، وبعد سنين جهَّز أسطولاً أضخم من الأرز نفسه، وتبعه غيره من ملوك الإسلام في اختيار الأخشاب للسفن من غابات لبنان، وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبرّكون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعًا ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى، وهو عَطِر الرائحة إذا وُضع في النار، ويَحسُن في الشم إذا مسسته بيدك، ولونه أصفر فاقع مُشرَّب بخطوط حمراء لا تعبث به الأرضة ولا يفعل فيه

السوس، ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم.

والغالب أن الحكومة السالفة القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها، وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر، وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله، وقد بدأ النقص في هذه الأشجار - ولاسيَّما الأرز منها - منذ خمسة قرون؛ لأن اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصًا، وقد جرت عادة بعض حكام لبنان إذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره، وإلى اليوم لا يزال من الأمثال العامة السائرة في الجبل «الله يقطع رزقه» أي ما يملك من شجر و «الله يخرب زوفه» أي بيته.

مثال ذلك أن الأمير أحمد اللمعني طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثُر بغيهم في كسروان، ففروا إلى بلاد بعلبك، فأحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع أشجارهم .. وقد رسم مرة «بيدمر» نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان - وكان في دمشق صيدا - ليكشف عمَّا فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقًا، وربما أحب عدم تصديع أهل البلاد بقطعه ونقله، ومنذ ذلك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلاَّ تصدعهم الدولة من جهته .. قلنا ومثل ذلك ما نشاهده في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فرارا من ظلم ملتزمي الأعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها أضعافًا مضاعفة.

ولم يبرح شجر الأرز موجودًا في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق، فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها «الأبهل»، وأخرى فوق قرية إليـاروك غيـر مُلتفَّة وضعيفة النمو لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلـك الأرجـاء، وثالثة فوق قرية عين زحلتا .. وكان أُحرق أكثرها لاستخراج القطران منـه قطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتُجدَّد بخشبه بعـض بيـوت المنكـوبين، ورابعة بين أفقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان، وخامسة بين قرية تنورين وبشرى صغيرة الشجر، وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف، وسادسـة بالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ مترًا عن سطح البحـر، وهـي مقصـد السياح، وفيها أضخم أشجار الأرز، ويبلغ عددها ٣٩٧، وقيل ٦٨٠ شـجرة، منها ١٢ كبرى، وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسـة عشـر مترًا، وارتفاع أطولها خمسة وعشرون مترًا، وقدَّروا عمرهما بثلاثـة آلاف سنة .. ولا أثر الآن في سوريا لشجر الأرز إلاَّ في أعالي سير ببلاد الضنية في وادي النجاص، ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عـن سطح البحر، وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلـف وادي جهـنم، ويسمَّى عند أهله «تنوب».

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الأرز – أو أيٍّ كان من شجر الاحتطاب في الأماكن الخالية ولاسيَّما في القمم والفـنن – لمـا أتـت عشرات من السنين إلاَّ وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة، وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً؛ لان شجر

الأرز لا يجود في الغالب إلاً في مثل هذا العلو من الجبل، بل من جبال سوريا التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها.

وإذا زاد عدد الغابات في سوريا زيادة كبرى، وتوفرت عناية ولايات بيروت وسوريا وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الأماكن الخالية – ولاسيَّما في المحال التي يُعرف أنها كانت غابات غبيناء نافعة – يتحول مناخ سوريا وتكثر فيها الأمطار بعد سنين، ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذّى بذلك العرب الرحالة في باديتهم، كما يتضرَّر ابن المعمورة بهم، ويصبح منهم بين نكبتين: سماوية بقلة الأمطار، وأرضية بسطو ابن البادية على ما بقي لابن القرى من رزق.

وليت حكومة لبنان تبدأ فتَفرض على كل لبناني أن يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر علَّها تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك، فلا يأتي عليها جيل إلاَّ وتُصبح سوريا غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر، والأشجار في بلادنا أكثر نمواً مما هي في أوربا لما عُرف من اعتدال الفصول ولطف الجو .. ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة أن كثر اليوم هطول الأمطار فيها على طريقة منظمة، وسيكثر خيرها كلما زادت أشجارها، وعسانا نقتدي في سوريا بهذا المثال.

❁❁❁❁❁

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا في مطالبهم، وبطلت - أو كادت - السلطة الانفرادية الذوقية، وقلت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصدًا كالزلزال الذي عاود لبنان مرّات سنة ١٧٩٥م وخرّب القرى وأهلك الناس، والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩ وعمّ لبنان كله، واستمر الموتان ثلاثين سنة، ثم أخذت تخف العوارض الطبيعية والأرضية وأخذ كل فرد يُحسّن من حاله، فنعمت النفوس باستتباب أسباب الراحة، وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية، ويلقنونهم شيئًا من اللغات الإفرنجية والعلوم العصرية، كما أن الموارنة

مازالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في روما يختلف إليه أحبارهم منذ قرون، وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد.

ثم أن طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم، والمسيحيون على الجملة يميلون إلى الرفاهية ويُقدرون طعم الحياة قدرها، ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطلع القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة، وتهيئ سبل التنقل على المصطافين في ربوعه، وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن؛ لأنه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم، وفيه الآن سبعون كيلومترًا من الخطوط الحديدية، منها خمسون من طريق بيروت ودمشق، وعشرون من تراموای شمالي لبنان.

وفي هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى، و ١٤ مدرسة أكليركية، و ٨ مستشفيات، و ٢٠٦ من الحراج والغابات، و ١٤٧ من معامل الحرير، و ٨١٩٧ من الدواليب .. وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦ ٢٠٢٧٠٣٠ أوقة، ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة، وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة، وكثُر سكانه حتى عدلوا أن في كل كيلو متر مربع ٦١ نفسًا، ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الآستانة وجزيرة سيسام (ساموس)، وسكانه الآن زهاء أربعمائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفًا من الموارنة و ١٦٠ ألفًا من الروم و ٣٦ ألفًا من الكاثوليك و ٥٥ ألفًا من الدروز و ٣٣ ألفًا من المسلمين (سُنَّة وشيعة)، و ١٥٠٠ من البرتستانت، والباقون أرمن وإسرائيليون وكلدان ولاتين، وفيه خمسمائة من

أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى، وأكثرهم فقــراء يســتوكفون الأكف، وقد أحصى جليلموس الصوري في تاريخ الصليبين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفًا، وما زال عددهم يربو على عــدد وفيــاتهم .. وإن هاجر كثيرون بعد ذلك إلى قبرص وردس والقدس ومالطــة، ولا يبعــد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم.

ولا يسعنا - وقد وصلنا من بحثنا في شئون الجبل إلى هذا الحــد - إلا أن نرسل جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة إلى أمريكا وغيرها من البلاد التــي تُوهم ابن سوريا أن المال فيها مُلقًى على الشوارع لا يحتاج إلا لمن يمد يــده ليتناوله، مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصْــرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صــرفوه فــي ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا أن المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب.

والذي ظهر من قرائن الأحوال أن ابن لبنان كان أول فلاح سوري هــاجر إلى أمريكا أو أجرأ من سائر السوريين على الهجرة مجذوبًا بما اشتُهر عــن القارة الأمريكية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثــة ســنة ١٨٦٠ وبعدها، ولأن ابن لبنان أكثر أهل جبال سوريا تعلُّمًا ونورًا وأوفــرهم نشاطًا ومضاءً وشممًا ودلالاً، بل أن مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام.

وأول من دخل أمريكا من السوريين الخوري إلياس بــن القســيس حنــا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨-١٦٨٣، وأول من دخل أمريكا الشــمالية في القرن الماضي الخوري فلابيانوس الكفوري، سافر إليهــا ســنة ١٨٤٨،

وأخذ معه ناصيف الشدودي .. وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤، وكانت غايتهم جمع الإحسان .. وأول من دخل أمريكا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المُرصَّعة بالصدف إلى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦، ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم، واتصل ذلك بشمالي لبنان وامتدَّ في كل سوريا، ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأستراليا وجزر البحر المحيط، بل وفي أفريقيا شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وقدَّر بعضهم أن ثلث المهاجرين يسكن أمريكا، وثلثهم يرجع إلى وطنه، والثلث الآخر يموت، ونظن أن الثلث الأخير مبالغ فيه، وإن كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل .. وأُحصي عدد السوريين المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفًا، منهم ستون ألفا في الولايات المتحدة، وخمسون ألفًا في جمهوريات أمريكا الجنوبية، وخمسة وعشرون ألفًا في أمريكا الوسطى، وعشرة آلاف في أستراليا وبعض الجزائر .. والباقون في أفريقيا والهند والفيليبين وكوبا ومصر، وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفًا نصفهم ذكور ونصفهم إناث، وربما كان الذكور أكثر.

كثُرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة، وذهب بعض سكان لبنان بأقدامهم وذكائهم المعهود فنـزلوا في دار الهجرة بلادًا تحتاج إلى أيدٍ عاملة ونفوس لا تعرف التعب، فأنشئوا يعملون ويذخرون ويقترون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أمريكا من أهل أوربا مثلاً، فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من

الليرات، فكان أول همه أن يُعمِّر له دارًا قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر.

وكثر تقليد الناس بعضهم لبعض، ومنهم من اشترى له أرضًا في بلده، وطفق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل .. أمَّا الأفراد الذين اغتنوا فعُدَّت ثروتهم بالألوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جريًا على المثل العامي «في المطرح الذي فيه تُرزق الصق»، وهم إن كنت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا، إذ يتجلَّى لهم الفرق الكبير بين «نيويورك» و«شيكاغو» و«سان فرانسيسكو» و«بيونس أيرس» و«سان باولو» مثلاً وبين «عشقوت» و«بسكنتا» و«عمشيت» و«عرنة» و«معرونة» ..أمَّا أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي وُلدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية، ولذلك لا يُرجى البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم .. وهذا القسم من خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم أن بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف، وبعضهم على جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعمدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة.

نفعت الهجرة لبنان وأضرَّته، وعندي أن المضار أكثر من المنافع؛ إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن، فقد يذهب ألف مهاجر مثلاً إلى بلد كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان، فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربعة عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفُّون أجرة الطريق التي استلفوها من أحد المرابين في بلدهم، أو باعوا في الحصول عليها أرضًا لهم ورثوها من

آبائهم .. خلِّ عنك من هلكوا بالأمراض وغيرها، وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها.

فإن من نظر في الأمور نظرًا سطحيًّا وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عُمِّرَت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان، وسمع بأن فلانًا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات، وأن بلد كذا يدخل إليه كل شهر من تحاويل أمريكا ما يُقدَّر بكذا من الذهب .. من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعروه هزَّة الفرح لبلاده، وربما اعتقد أن الحال إذا دام على هذا المنوال وأموال أمريكا تتسرَّب إلى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الأمريكان وننقل شطرًا عظيمًا مما عندهم من الذهب الوهَّاج .. وهذا منتهى السعادة البشرية.

ليست السعادة بكثرة المال، السعادة شيء غير مايتوهمه من همهم إنشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة .. قالت لي عجوز في صليما وقد سألتها أين رجالكم «ذهبوا إلى أمريكا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمَّروها لتسرح فيها الفئران، عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لأن ما جمعوه لم يكفهم لإتمام هذه الدور على ما يُحبون وفرشها ونقشها، ثم أن حال البلاد لم يعجبهم بعد أن شاهدوا مشاهد أمريكا»، وقول هذه العجوز الذي أحزنني مغزاه – ولا تزال الأذن تُردِّد صداه – قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء.

أي حسرة أعظم من أن تتوقع أم في كل أسبوع قدوم ابنها، وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتابًا منه! أو زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم، فتضطر تلك المرآة المسكينة أن تعمل ليلها

ونهارها لتُطعم أولادها من كدها وما هي بمفلحة، وأي بلوى أكبر من أن تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عريسًا لأن شبان الضيعة هاجروا وأكثرهم لا يريد أن يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة أمريكية وزهد في أسرته وقريته لأنه تمدن بزعمه ولا يليق به أن يتزوج إلا من متمدنة! ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يُدرك سر تعدُّد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الأهلين عن التناسل، ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه.

وإن دعوى من يدّعون أن لبنان لولا الهجرة لأصبح خرابًا مردوده من وجوه أحدها أنهم يعتقدون أن تلك الأموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان، وما الثروة في الحقيقة إلاَّ العمل ليس إلاَّ، فقد رأينا إسبانيا على عهد «شارل» كان يتسرَّب المال إلى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمورة لأن هذا الملك كان يعتقد أن كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها، ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست إسبانيا أفقر بلاد أوربا؛ لأن أهلها انقطعوا عن تعهُّد تربتها والأخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم.

إن انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين إلى نزول أمريكا وأفريقيا للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة إلى مساقط رءوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهُّد أرضهم واستثمار صناعاتهم؛ ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله إذا زادوا ضعف ما هم الآن، ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان

واسع للجد، ولا يشعر بذلك إلا أرباب الأملاك .. مثـــال ذلـــك أن «كدنـــة» الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشًا فأصبحت اليـــوم تساوي ستين، على حين أن غلاّت التوت مثلاً لم تزد على تلك النسبة، وذلك لقلة أيدي العاملين وارتفاع أسعار الحبوب وغيره من مقومات المعـــاش فـــي البلاد، ولأن المهاجر اللبناني - الذي كان فلاحًا حرّاثًا إلى عشرين أو ثلاثين جدًا من أجداده - إذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب إلى بـــلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل إلى معاناة الزراعة، بل يُفضل أن يعيش كما يعيش تُجار أمريكا وأرباب الأملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيـــه ســـنة واحدة إذا ظلّ عطلاً من العمل.

في أمثال العامة «أنا أمير وأنت أمير، فمن يسوق الحمير؟» حكمة لطيفة نافعة تصدُق على كل لبناني المهاجر، فإذا أحبَّ كل فرد من المهـــاجرين أن يُقلّد الأعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهُّد التوت والزيتـــون وغـــرس الصنوبر والأرز والسنديان والزان وحفر الأقنية والأحواض وتمهيد الطـــرق ومعالجة الصناعات من حلِّ الحرير وصنع الأقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة؟.

ولقد قال الاقتصاديون إن من جملة ما ساعد ألمانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية أنك تجد في رجالها أنواع العاملين، ولا يستنكف كل عامـــل من عمله، بل ولا يريد أن يُعرَف إلاّ به، فالألمان أشبه بجيش مُـــنظّم، فـــيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم، كلٌ واحد منصرف إلى عمله لا تحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه، بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويُحسنه ما أمكنه الحال، ولو جرى أهل بلادنا علـــى هـــذا المثـــال

لأصبحنا بعد جيل أُمة راقية حقيقية، ولمّا رأينا الصغير يكشو لأنه يريد تقليد الكبير وأسبابه لا تساعده.

نحن لا نجاري أولئك الذين يدّعون أن لبنان كان خرابًا لولا الهجرة لأمور أقلها أن البلاد السورية واسعة، وأهل لبنان اليوم - وقبل اليوم - يستطيعون أن ينزلوا الأقاليم القليلة السكان المحتاجة إلى العناية ويستعمروها، فإن فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيدا تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه؛ فإن لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً ما يكفي لإغناء مئات الألوف من الناس، فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمّروها بكدّهم لأصبحت بعد سنين جنّات زاهرة، وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم أيام السنة في جبلهم.

وقد كتب قائممقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة «المقتبس» يقول إن خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش، فلو اشتراها بعض أرباب الأموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي تُرقّي زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة إلاّ وهذا القضاء وحده من أعمر البقاع السوري، فما بالك بما في غيره من الأقضية والألوية والولايات العثمانية من الخيرات.

لا نوافق القائلين بالأغنياء بسرعة، فإن ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء، وإنّا لنؤثر أن يُوجّه اللبنانيون - ولاسيّما في عهد الدستور السعيد - وجوههم قِبل البلاد الداخلية من سوريا والعراق

والأناضول؛ ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة، ولو صبروا على جنيها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد ومُلك لا يكاد يبلى.

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقي لو سعوا إلى تحسينه كعمل الأقمشة والنجارة والحدادة وغيرها، وله مورد آخر للربح يُنتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سوريا، ونعني به موسم المصطافين؛ فان لبنان من سوريا ومصر كسويسرا من أوربا وأمريكا يقصده الكثيرون كل سنة التماسًا للصحة والراحة، فلو عُني اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينـزلون عليهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة، فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين، فلو فرضنا أن الواحد يُنفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مئة وخمسين ألف ليرة، فما الحال لو زاد هذا العدد؟ ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة، وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قمم لبنان لا يلبث أن يجلب إليه أناسًا من المصطافين من أهل أوربا نفسها، خصوصًا إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب، وأنها لا تبلغ – مع أجور النقل في البحر والبر – المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف.

وبعد، فإنَّا لا نفتأ نُكرِّر القول بأن من الأنفع لابن لبنان أن يُوجه بعد الآن وجهته إلى الداخل ليعيش ويُعين، وأنه إذا استفاد المهاجر منا إلي أمريكا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض أصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فإن الأنفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم،

وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن إخلاص لا يُراد منهـا إلا نفـع لبنان خاصة وسوريا عامة، فإن ما يقاسية اللبناني من ألم الغربة والمهانة في الأحايين واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بـألاَّ يُنسـيه بـلاده والعيش بين أهله وجيرته، وقدَّر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن مـا حملـه اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة، أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر، فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة .. هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية؟..

حالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدي بها ليس ببعيد، غبت عنها أربعة عشر شهرًا، وكنت صرفت أربع سنين أيام الحكم الاستبدادي في المملكة العثمانية فلم أر اليـوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يومًا قضيتها في مشـاهدة من خلفتهم فيها من الأصدقاء الكثيرين، والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الإفرنجية، حوت ما في العواصم من ضروب الرُّقي والانحطاط ممـا تنفقه على غيرها طوعًا أو كرهًا، ويأتي الناس من القاصية فيأخذونه عنهـا ويهتمون بتقليده وتأييده.

إن من ينظر إلى مصر نظرًا سطحيًا يأسف لها كثيرًا ويعدُّها كنـزا ضائعًا ودمًا ضيَّعه أهله، ومن يُمعن النظر في مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها

ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضي بما هو آت يُدرك أن المستقبل المخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والأدبية إذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية، وهم يتفنّنون سنة عن أخرى في تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام.

ليس في أقطار الشرق - ولا في أقطار الغرب - بلد عُرِفَ تاريخه كما عُرِفَ تاريخ مصر، ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادَّخره.

فقد قال لنا التاريخ إن عهد بعض سلالات فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية، وإن مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية، فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة، كما كانت دولة فاضلة متحضرة .. وأنه جاء زمن طويل على مدينة الإسكندرية أيام الرومان كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها، كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء، وكما تفيض كليات أوربا وأمريكا على آسيا وأفريقيا اليوم.

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها، وكان حظّها من المعارف حظ سائر بلاد الإسلام، وان كانت لها الميزة أبدًا في هذا الباب على الأقطار المجاورة؛ فقد كانت على عهد الأيوبيين والجراكسة والمماليك - على انحطاطها - موردًا تستقي منه البلاد الأخرى؛ وكانت العلوم الإسلامية - والأدبية خاصة - مما يُحمل من أزهرها إلى شمالي أفريقيا وداخليتها وبلاد العرب والترك وسورية وغيرها، ولما جاء نابوليون

الأول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها - بواسطة عملاء من الفرنسيين - روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الأوربية، وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية - بل بالبعوث السلمية - إلى أوربا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقي.

وما برحت هذه الإرساليات تكثر، ومصر الحديثة تتكون على المناحي الغربية حتى جاء الخديوي إسماعيل وأسرف في مالها إسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الماليين الأوربيين (وأكثرهم إنجليز وفرنسيس)، ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت إنجلترا مدخلاً لها بحجة أن أرباب الأموال يوجسون خيفة على أموالهم، ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلاً فعملت وحدها على إطفاء الفتنة، فصدقت عليها كلمة نابوليون في قوله (وقد أخرجته إنجلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضي) أنها لم تُخرجنا منها إلاَّ لتأخذها لنفسها في المستقبل.

دخلت إنجلترا مصر لإطفاء الفتنة أولاً ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر أسهمها لجماعة من أبنائها، والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الأقرب ومادة حياة دولة البحار، ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يُعذَر.

ولقد كان ميدان الإصلاح فسيحًا أمام المحتلين لتوفر الأسباب الطبيعية لمصر، وإن بلادًا لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الإنسان طبيعتها لأقرب البلاد إلى معالجة الإصلاح في مجاهلها ومعالمها.

ولما استتب الأمن في أنحاء القطر أقبل أرباب الأموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية، فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الأخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة.

نهيًأ لمصر والحق يُقال من رجال الاحتلال أناس عملوا بإخلاص لتحسين زراعتها وريِّها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معًا، وكان عميدهم الأكبر لورد كرومر الذي أدار دفة السياسة المصرية أربعًا وعشرين سنة أرخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر إلى مصر كثيرون من المشارقة، عملَ هذا وغيره من الأعمال النافعة، ولكنه كان يُحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التي لا تسمح الحال بإعطائها للمصريين، وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي، فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحًا وتلويحًا في تقاريره السنوية «أنكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الأعمال، فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تُساقون إلى السُّخرة سوقًا وتستعبدون استعباد العبيد والأرقَّاء أيام الحكومات الماضية المدمِّرة، فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه؛ فحالكم الآن أحسن من ماضيكم مائة مرة، فعليكم أن تقنعوا بما حزتموه».

ولكن نبهاء مصر لم يفتهم معنى هذه السياسة، وكان الفضل الأكبر للجرائد في تنبيه شعور الأمة المصرية إلى أن وراء ما هم متمتعون به الآن مطلبًا أسمى وأنفع فقاموا يسعون اليه سعيهم، وهم على اختلاف في الطرق الموصلة إليه لا يختلفون في كون بلوغه لا يتأتَّى إلاَّ من طريق التعليم والتربية.

فبذل أهل الاقتدار المالي ما سمحت به نفوسهم من إنشـــاء الكتاتيـــب فـــي الأرياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين، ثم رأوا أن الأمة لا ترقى إلاَّ إذا كان فيها أفراد يُحسنون تعليم الأمة – بلُغتها – ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية، فســعوا إلى إقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والسنوية باللغة العربية – وكان أكثره بالإنجليزية من قبل – ثم رأوا أنه إذا لم يكن لهم من أبنائهم من يُعلِّم العلم العالي سبب ارتقاء الأمم لا يكون العلم إلا عقيمًا ناقصًا فانشئوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية، وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثـــال الجامعات الأوربية تُدرِّس علوم الجامعات الإفرنجية باللغة العربية، وهي أول جامعة من هذا النوع لأُمة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليونًا من البشر.

نعم، إن الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الإصـــلاح علـــى الأزهـــر ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة الهندسة والزراعة وسائر المدارس الأميرية والخصوصية؛ هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة، ولابدَّ لهذا الأمر مـــن آخـــر، ولمساعيهم الحسنة من نتيجة إذا سلك القوم سبيل التؤدة، وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح، واستفادوا بتجارب الأمم الســـالفة، وانصـــاع العامـــة للخاصة، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم، وبذلك تصبح أسباب القوة الماديـــة والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الأمـــم الحيـــة حقيقـــةً لا مجازًا.

لاجرم أن المصريين – بما فيهم من الذكاء وما ورثـــوه مـــن حضـــارتهم القديمة وتسير لهم من الرُّقي المادي – هم بمجموعهم أرقـــى مـــن مجمـــوع

الشرقيين (خلِّ عنك اليابانيين)، وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب، وربما فاق الأتراك المصريين في الأمور السياسية والحربية.

ولا يُعاب على مصر إلاَّ فتور همة أبنائها في منتصف الطريق في الأغلب، وهذا الخلق يكاد يكون عامًا في القطر، لا يقوى في التغلُّب عليه إلا التربية العملية، وحبَّذا يوم نرى فيه مصر تُقبل على تعلُّم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيكا والمعادن مثلاً إقبالها على تعلم الحقوق مثلاً، فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوربا وأمريكا، والقسم الأعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشَّحوا منها إلى الوظائف؛ لأنه وقَّر في النفوس أن فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصًا، وهو متوقف – بعد العلم النظري – على طلاقة لسان وفضل بيان، والمصريون أكثر العرب حظًا من تينك المزيتين.

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوي إسماعيل، ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كأوربا في صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لا تخرج أملاكها بطيش الطائشين من أبنائها إلى أيدي الغريب، فيعود المصري بعد بضع سنين – والعياذ بالله – كالغريب في بلده، وما أصعبها من حالة!.

إن مسألة الراية التي تخفق على أمة لاتهم بقدر ما تهم في الحقيقة مسألة الأملاك؛ إذ أنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لا تحدثها نفسها أن تنـزع من المالك ملكه إلاَّ برضاه، ومصر – التي تتأذَّى اليوم بوطأة الرومي والطلياني والإنجليزي وغيره – لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك

الوراثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم، هذه هي الفئة الضالة المضلة في هذا القطر المحبوب، ومنها يُخشى على مستقبله، فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعه أعشار :الأطيان والأملاك في مصر للغرباء، وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون، منها نحو مائة مليون دين الحكومة، ولا نعرف متى تُوفِّيه، والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير.

إن ما نخشاه على مصر هو الإسراف الزائد وتقليد الغربي على العمياء، ولو كان لأهل وادي النيل شيء من الإمساك المحمود والاقتصاد المعقول، إذاً لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم، ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يُدبرها والحنكة قائدها ورائدها، وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يُخبئها للأفراد كما لا يبخل بها على الأمم لابدَّ أن يتمتع يومًا بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي منتهى آمال كل أمة حيَّة في هذا الوجود.

مارسيليا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقلعت بنا من الإسكندرية الباخرة إيكواتور (خط الاستواء)، إحدى بواخر شركة «الميساجري ماريتيم» الفرنسية، فبلغنا ثغر مارسيليا أكبر موانئ فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر، ولم نرَ في طريقنا شيئًا يستحق الذكر سوى بعض سواحل إيطاليا وفرنسا وقد تجلَّت عن بعد، وكان نظرنا يختلف إليها بقدر بُعدنا أو قربنا منها، ودام البحر زهوًا حتى إذا خرجنا من مضيق «مسينا» أصبحنا – وأصبحت سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها –

ألعوبة العواصف، والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الأربع إلاّ وقد أخذه الدوار أو كاد، ولم نملك حواسنا إلا عند بلوغنا ساحل السلامة.

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصانًا، ومحمولها ٣٨٤٨ طنًّا، وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً، وهي إحدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانئ البحر الأبيض والبحر الأسود والبحر الأحمر وبحر الأدرياتيك .. ولهذه الشركة – التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك – تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصَّت سيرها بالبحرين الأولين في الأغلب، ومن موانينا التي تقف عليها بواخر الميساجري ماريتيم «خانيا» و«سلانيك» و«الآستانة» و«جناق قلعة» و«أزمير» و«مدانيا» و«فاتي» و«لارناكا» و«مرسين» و«الأسكندرونة» و«اللاذقية» و«طرابلس الشام» و«بيروت» و«يافا» و«حيفا» و«رودس» و«الإسكندرية» و«طرابلس الغرب» و«مصون» و«طربزون» و«بورسعيد» و«السويس» .. ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسوة والنمساوية والروسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تُصَدَّر من بلادنا وتُرَد إليها، ولتعذر التنقل إلا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض.

ولشركة الميساجري أيضًا اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب إلى الهند الصينية وتوابعها، وخمس بواخر لخط الكوشنشين، وست بواخر لخط استراليا وخلكيدونيا الجديدة، وخمس بواخر في المحيط الاطلانطي (الظلمات)، وسبع اختصَّت بالبحر المحيط الهندي، وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في

بعض الموانئ الكبرى، وأشغال الشركة متوسطة مع أن حكومة فرنسا تدفع إليها إعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها.

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب إن البواخر الألمانية والإنجليزية والطليانية تفوق – بانتظامها وحُسن خدمتها – البواخر الفرنسية، وإن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه، مع أن الأجور واحدة .. ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها إلى تخفيض الأجور في الصيف إلى نحو النصف لركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة، وأخذت تخصم خمسين في المائة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقرَّرة، فإذا كانوا أربعة فأكثر يُخصَم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المائة، ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره.

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة أن اتفقت مع شركات البواخر الإنجليزية والأمريكية وشركات السكك الحديدية على أن تنقل الركاب إلى الموانئ التي تختلف إليها بواخرها، وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويحتازون من نصف الكرة الغربية إلى النصف الشرقي، والأجرة في ذلك معتدلة، فيسلك الراكب – إن أحب – أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور، فالطريق الأول عن موانئ الصين واليابان وكندا مارًا بفانكوفر، وهو يُكلف في الدرجة الأولى ٣٢٨٨ فرنكًا .. والطريق الثاني أستراليا وفانكوفر، ويُكلف في الدرجة الأولى أيضًا ٣٥٧٥ .. والطريق الثالث إلى أستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر، وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الأولى .. والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان

فرانسيسكو، وتكلف ٣٢٨٨ فرنكًا .. والطريق الخامس إلى أستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرانسيسكو، وتكلف ٤٢٥٧ فرنكًا في الأولى، فيركب الراكب من مارسيليا إلى هونج كون على بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنجابور وسايجون، ومن هونج كونج إلى شنغهاي إلى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على بواخر شركة الباسيفيك الكندية - بحسب ما يختار الراكب - ومن يوكوهاما إلى فانكوفر على بواخر الشركة الكندية، ومن هنا يركب القطار إلى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون، أو نيويورك إلى ليفربول أو سومتون على إحدى البواخر الإنجليزية أو الأمريكية أو النمساوية، أو من نيويورك إلى الهافر على بواخر التراسلانتيك، ومن الهافر - بالسكة الحديدية - إلى باريس.

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الأرض، ولو قال قائل هذا لأحد أجدادنا الأقدمين وقال له إنني أريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب إليه الجنون، وقال إن ذلك لن يكون، ولكن إذا عرف سر الأسفار في هذه العصور يقول «سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار يفعل ما يشاء ويختار».

وبعد، فلم يتسع لي الوقت لأدرس جميع معالم المدينة في مارسيليا؛ لأني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة من عناء السفر الذي طال علينا إحدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الأنواء، ولطارئ طرأ على آلتها في عرض البحر فأصلحتها، ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الإسكندرية ومارسيليا في خمسة أيام بلياليها لا

تقف قرب اليابسة، ومن البواخر الإنجليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومارسيليا في أربعة أيام، وهذه البواخر خاصة بالبريد الإنجليزي تنقله من أستراليا والهند إلى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يومًا، لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زادًا ووقودًا وركابًا .. والمسافة المعتادة بين أستراليا وإنجلترا لا تجتازها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يومًا.

قامت مارسيليا في منقطع وادي الراين الجميل، فكانت جملة الجمال الفرنسي بما فيها من الجبال والسهول وما أحرزته من مجد قديم وغنًى حديث، وأن محيطها - الذي لا تقل مساحته عن مائة كيلو متر مربع - لأحلى من العافية في بدن السقيم أو النضارة في خدود الجواري (كما يقول بديع الزمان)، أستغفر الله، بل كاد يكون أجمل من الحور الذي تقرءوه في عيون المارسيليات الدعج .. ولعلَّ جمال العيون في النساء هنا - والتي فاقت عيون البدويات الرعابيب - انتقلت إليهن من أجدادهن العرب؛ فقد قال «ميشله» المؤرخ: إن أصل سكان مضايق الراين مختلط كثيرًا؛ ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان، والغالب أن سكان جنوبي أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور.

وإلى اليوم يكثر في مارسيليا الغرباء (ولاسيَّما الطليان)، ففيها ٥٥٠ ألفًا من السكان خُمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل، وهم عُشر الأجانب في فرنسا، وكان في مقاطعة مارسيليا سنة ١٩٠٦ ٧٦٦٥٠٠ ساكن، منهم ١٢٣٥٠٠ أجانب، وفيها ٧١٨ مدرسة، وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلومترًا من

الخطوط الحديدية، و ١٦٣ كيلومترًا من الترام، و ٢٨٤ من الطرق الأهليــة، و ٣٦٨٣ كيلومترًا من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها.

أاهم صناعاتها عمل الأقمشة وتحضير الأطعمة والمأكولات وصنع القرميـد، خلِّ عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرُقي عن زراعة عامــة البلاد الفرنسية، وفيها دور صناعة للأساطيل والبواخر التجارية، ولاســيَّما دار صناعة الميساجري ماريتيم.

قال من كتبوا عن مارسيليا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ، وهي أول ميناء بحرية لفرنسا، يُرّد عهد إنشائها إلى القرن السادس قبل المسيح، وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منــزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق، ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية، ومن أحسن متنــزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣، وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البـالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ ١٦٣٣، وعدد الركاب ٥٥٠ ألفًا، وقدَّروا مـا يدخل إليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة .. وناهيك بـه من عدد.

ويطبع فيها ويُنشر ١٤٦ جريــدة ومجلــة، وجريــدة «البتــي مارســيليه» (المارسيلي الصغير) أوسعها انتشارًا تطبع ١٨٠ ألفًا كل يوم، وهو فــي حجـم الماتين والأيكودي باري .. كما يطبع «البتي باريزيان» (البـاريزي الصـغير) الذي يصدر في باريس مليونًا ومائتي ألف نسخة في اليوم، والثاني أكثر جرائـد فرنسا انتشارًا، فكأن لهذه الأسماء الصغيرة من حسن الوفيــق مــا لا يخـالف الأعمال التي تبدأ بالألقاب الضخمة والأسماء الفخيمة.

زرت إدارة البتي مارسيلية فرأيت النظام مُستحكمًا في كل ما يتعلق بها، وهي اليوم في السنة الثالثة والأربعين من عمرها .. وأقدم منها - بل أقدم جرائد مارسيليا - «السيما فوردي مارسيل» أنشئت سنة ١٨٢٧، وهي من الجرائد الجدية المعتبرة إلاَّ أنها أقل انتشارًا، وهذه الجريدة تُباع في مقاطعة الراين وما إليها مثلاً، فلو فرضنا أن ما يُطبع من جرائد مارسيليا ومجلاَّتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لأصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل، هذا عدا الجرائد الباريسية وغيرها التي ترد على مارسيليا وتباع في شوارعها بالألوف أيضًا.

ومن الأسف العظيم إننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والإيرانية لا يبلغ بكميته قدر ما تطبع كل يوم جريدة «البتي مارسيليه» إحدى جرائد ولايات فرنسا! وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيين، وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء، ولاسيَّما في الأمور العقلية.

ليــون

٨

ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيين وكل فرع من فروعها المُدهشة لو تعاورته الأقلام الكثيرة وتوفَّرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت إلاَّ إلى جانب القصور، نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل وشاهد مدينة - فرنسا فقط لحوقل واسترجع وقال: «هذه حضارة ليس لنا في وصفها مطمع»، ولو أتى المسعودي بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير، ولو جيء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لا يُحسن إملاء ما رأى وسمع، ولو قام ابن

جبير لاعترف بقصور ذرعه وعدم نفاذ طبعه وقال: «إن هذا إلا حلم وخيال، ونحن لا نسجل في رحلتنا إلا ما تقع علينا أبصارنا ويترامى إلى آذاننا وتمسه أيدينا».

- وبعد، فماذا يصف القلم في ليون؟ أجمالها الطبيعي أم الصناعي؟ معاملهـا الحريرية أم مدارسها وكليتها أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها وخطوطها الحديديـة والكهربائيـة وجسـورها الحديدية والحجرية وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها ونهريها العظيمـين الراين والسين الذين يقطعانها شطرين ويزيدان في بهجتها ما تقر به العين.

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل؟ وعلى جسر ليـون مـرّ الصليبيون في القرون الوسطى ذاهبين إلى المشرق لـ«إنقاذ» البيت المقدس من أيدي المسلمين!، نعم، ماذا نُعدِّد من ليون وبدائع صنع الإنسان فيها ومـا ضمَّت من معاهدة قديمة وحديثة ومشاهد بهيجة؟ ويالله ما أعجـب معـرض نموذج الأنسجة الذي حوى أربعمائة ألف نموذج ليس لها نظير فـي العـالم، وعرضت على أنظار أهل البلاد والسائحين ينتفعون بالنظر إليها ويسـتدلون بها على تفنن يد الإنسان في كسوة الأبدان.

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصـنوعاتها بسـرعة فـإن «البخار» البري عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية؛ ففـي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطارًا غادية ذاهبة من أنحـاء شتّى، ولاسيَّما من الشمال إلى الجنوب، والمسافة بين باريس ومارسيليا ٨٥٠

كيلومترًا ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه، يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريس عاصمة البلاد ومارسيليا ثغرها، والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدية ثالث لتسيير القطارات لأن الخطين الموجودين لا يتأتّى أن يجري عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافةً أن يحدث اصطدام بين القطارات، وسيكلف الخط الجديد بين باريس ومارسيليا مئات الملايين من الفرنكات وكل ذلك حتى لا يتأخّر راكب ولا بضاعة، وتأخذ كل جهة حظها من العمران.

لم تقف ليون عند حد الأعمال الصناعية والتجارية والمالية بأن كانت هي التي أسّست مصرف الكريدي ليونيه مثلاً من أعظم مصارف العالم، بل لها حظ كبير من النهضة العلمية وأثر راسخ في الحضارة الفرنسية، وناهيك بكليتها التي تحوي فروع العلم – ولاسيّما الطبيعي – والحقوق الطب والتجارة يختلف إليها ٢٥٠٠ طالب منهم الأجانب، وفيهم نحو خمسين مصريًّا أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة، والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخرج في كليتها، وقد كثر ورودهم عليها بعد أن ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه فعينته حكومته في كلية ليون أستاذًا، فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له أن جذب عشرات منهم للتعلُّم في كليتها، وهو يُشرف عليهم إشراف الأب على أولاده، وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات الفرنسية – ولاسيّما كلية مونبيليه – وذلك على عهد الخديوي إسماعيل لأنه كان يعتقد أن أهل مونبيليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنسيين عن التطرف.

قضيت في ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقي محمد لطفي أفندي جمعة الكاتب الخطيب الغيور، فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعي والتكافل الإنساني والذوق الفرنسي، وفي مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيين لما يشهده السائح فيها من السكون والانقطاع إلى الأعمال الشريفة، فلا يسفون – كأكثر سكان العواصم – في الأغلب للمكاسب الدنيئة، أو يرضون بان يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزانتها بالتوظف والاستخدام.

وما أبهج ساحة بللكور (الفناء الجميل) يوم الأحد والرجال والنساء والأولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ في وجوههم غير الأدب ولا في حركاتهم إلا التربية البيتيَّة العالية والتشبع بالنظام المدني المعقول، حتى إذا جنَّ الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل وأماكن اللهو والطرب وسماع الخطب والمحاضرات، وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وإفادة، أخذوا بحظ وافر من دنياهم ولم ينسوا تعهد آدابهم، فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون.

ولقد كنت كلما وقع نظري في ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثني النفس بسوريا فأقول «متى يا ترى يكون فيها مثل ما في ليون على الأقل؟»، ولو أن عمران ليون وحدها – وهي إحدى مدن فرنسا – وما فيها من قوة مادية وأدبية لو وُزِّعت على سوريا من عريش مصر إلى الفرات ومن البحر المتوسط إلى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سوريا – وهي في مساحتها نحو مساحة فرنسا كلها – من حيث عمرانها أرقى مدن

المعمورة، ولكن الرزق لا يأتي بالتمني، والوجود لا ينتفع به إلا من يُحسنون استخدام ما فيه من القُوى والعناصر.

❁❁❁❁❁

تحية باريس

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة، وربيبة الرَّخاء والنعمة، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية، ومُحييه المدينة الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين والضرب علي أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين؛ أنت هذَّبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف

والذوق وفائدة العلم والعمل، أنت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منهـــا تمجيد العقل بل تأليهه، فقضيت بالتقدم له على كل شيء في الوجود، وبالغت في إكرام رجال العقول من أبنائك.

سلام عليك يا عشيقة الإبداع والاختراع، وسابقة الأقـــران فـــي مضـــمار الانتفاع بما حوت الرباع والبقـــاع .. اســـتخدمت القـــوى الماديـــة فأجـــدتِ استخدامها، واستثمرت القوى العقلية فأبـــدعت فـــي اســـتثمارها، وأحييـــت حضارات الأمم السالفة، وأنشأت لك حضارات لا يزال يحسدك عليها أســـبق الشعوب إلى الترقي مهما تقلَّبت بك الحال، ويجدون في أوضاعك مـــا لـــيس يجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال.

سلام عليك يا واضعة حقوق الإنسان، وملقحة الأذهـــان بالتنـــاغي بحـــب الأوطان، والداعية إلى ثل عروش الجبارين والمخربين، أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها، ولم تُعلقي مسائلك على القضاء والقدر، بل أخذت بالأسباب والمسببات فقتلت مـــن أراد قتلك، ووضعت من لم يهمه رفعك، وكنت للناهضين من الناس خير مثال.

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما انشأتيه من مجامعك العلمية ومدارسك الجامعة والكلية، ومجالس العامية والخاصية، وجمعياتك ونقاباتـــك لخدمة المدنية والإنسانية، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وســـماعك ومتاحفـــك وحدائقك ومكاتبك ومعارضك، وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم، ودلٌ على مجد طريف وتالد وتاريخ على جبين الدهر خالد.

سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحريـــة والمســـاواة ليتعاشـــروا بالمعروف، ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع حتى لا يبقى تمييز فـــي

الحقوق والواجبات بين المختلفين في الموالد والديانات، وقطعت التفاضـل إلا بالأعمال الصالحة والأحلام الراجحة.

سلام عليك يا متشبعة بأفكار الحكماء، ارتضيتيها منهم قانونًا تجزين عليه لسعادتك، ولئن جاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها فذلك لأن سياسة المنـافع والمصالح قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح، ولأن نظام بقاء الأنسب لا قلب له، والتنازع في جهاد الحياة كثيرًا ما يدعو إنسان إلى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والسماوية، ولاسيَّما في هذه العصور التي يفصل فيها كـل عمل على قالب الماديات، وما ذلك إلا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال، ولعله لا يفوتهم في مستقبل القرون والأجيال.

السلام على هذه العاصمة التي أحسنت إلى الشرق فيما مضى، فعلمته حتى استمد منها النور . فإن قلنا معاشر الشرقيين - ولاسيَّما سكان الشرق الأقرب - «إنَّا نأخذ عن المدنية الغربية» فإنما نعني المدنية الفرنسية، وبعبارة أصـح المدنية التي تنبعث أشعتها من باريس ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسَّر لنا أن نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض.

سلام عليك، علمتِ وعملتِ فما أحسن العلم والعمل إذا اجتمعا! وما أحلـى الإخلاص والشعور بالواجب!

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل والعطف على البائسـين والمساكين، والرفق بالضعفاء والعاجزين، والأخذ بأيدي المقهورين والعاثرين، والانتصار للمظلومين من الآدميين .. خصوصًا إذا كانوا من طينة أوربية.

سلام عليك، أنت العاصمة التي تركت القصور الفخيمة التي عُمِّرت بدماء الأمة، مباحة للناس يدخلونها وكانت بؤرة المظالم والمغارم، ومنبعث الشهوات

والأهواء، ولطالما جارت جوانبها بالدعاء إلى السماء من حيف الكبراء أيام كان يُوقِّع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعًا واحدا يترك من الغد مائة ألف أسرة في هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ليعمر بما يجمع قصرًا له أو يدفعه لمحبوبته، فلما أضناك الظلم والعنت قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة متاحف عامة، ومن دور الظلم والظلمات مجالس عدل وعلم ونور.

سلام عليك خلدتِ أعمال من خلفوا لك هذه المدنية، وأقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والإعظام، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الألوف من المرات لتجعليهم مهمازًا لمن يأتي بعدهم من الأبناء والأحفاد.

سلام عليك يا بلد ديكارت وكونت وروسو وڤولتير وديرو وسيمون ومونتسكيو وهوجو وباسكال ورنان، ومئات أضرابهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك فلم تنسِ أفضالهم عليك بعد مماتهم.

أنت أن خجلتِ من ذكرى الحروب الصليبية وديوان التفتيش الديني ومذبحة القديس برتلماوس ومقتل الفيلسوف فيفاني وجنون نابوليون وغير ذلك من الأعمال البربرية في عصور الظُلمة؛ فإن سكانك يفاخرون - وحقٌ لهم الفخر - بأنهم أحفاد ثورة سنة ١٧٨٩، قاموا من الأعمال المشكورة في عصور النور ما يُنسي الماضي إلا أقلّه، فالحسنات يذهبن السيئات.

السلام عليك باريس أجمل عواصم العالم وأغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية، لست أنت اليوم عاصمة مائة مليون من البشر: أربعون في أرضك وستون في المستعمرات، بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين لأسباب هنائك وصفائك ونعيمك

ونعمائك، وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق وسلامة الإبـداع ووفـرة العلماء والباحثين والكاتبين والشعراء والقصّاصين، فكل شيء فـي بـاريس مبذول حتى لتعافه النفوس، من أقصى ما يتصور الفكر من الفضيلة إلى آخر ما يجول في خاطر أو يحوم حوله خيال.

فباريز – ولا مراء – جنة أراضيه، جمع فيها موجدوها – أسـتغفر الله – ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

*****

باريز بعد الغروب

١٠

إن فاخرَت باريس بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لتلفـت إليهـا الأنظار وتستفيد الفخار والنضار، فإن لها كل ليلة معارض لا تختلـف عـن السابقة إلا في كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالاً وأكثر جمالاً.

يصرف الباريز – أو معظمهم – نهارهم في الاستعداد لليلهم، وكثيرون لما بعد الشفق، فهم لا يجعلون «الليل لباسًا والنهار معاشًا» كما هي عادة معظـم

الأمم، بل إن الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة، ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس وتطلع بدلها شموس وأقمار.

ترى المدينة في النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالأشجار غالبًا، وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة، وفي هذه الأماكن تشهد مجالي الحُسن والإحسان وما تفننت في إبداعه العوامل وتلطفت في روائه الأفكار والأنامل.

على تلك الأرصفة تناجي النفس رب النجوى قائلة: اللهم هل خلقت باريس من معدن اللطف والظرف لتكون مثالاً من جنة أرضية فخصَّصت أهلها بالاستمتاع بنعمة الجمال حتى لكأنك شطرته شطرين: شطر وقفته على الباريزيات وشطر وزّعته على سائر بنات حواء.

إن امتاز الفرنسيون بالإبداع في الصناعات فقد امتازوا أيضًا بنضرة الوجوه، وإلى باريس تحمل هذه الأمة – ولاسيَّما في فصل الشتاء – أفضل ما عندها من مجالي الكمال والجمال أيام تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والمتجرين والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين، وتغص دواوينها وإدارتها، وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية.

ويزيد الوجوه بهجة في باريس تفنُّن القوم في الأزياء، وتغاليهم في التبرج والزينة تغاليًا مهما تقدَّم عند غيرهم لا يزالون مصدره ومورده وأساتذته وسدنته، ومظاهر الأزياء تتجلَّى في باريس بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات، وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الأرض وتحتها، وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق، ويزيدها

فتنةً للناظرين ما اعتاده الباريزيات – إلاَّ من عصم ربي – من أبداء زينتهن لغير المحارم أكثر من إبدائها لبعولتهن وذوي قرباهن، ورنين أصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود، وتستطيبه أكثر من تغريد العندليب .. وهناك الفتنة بعينها، والفتنة أشد من القتل، ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين.

ولعل هذه المجالات في الحرية المفرطة حملت الكثير من الغرباء على نزول باريس ليشهدوا فيها ما لا يشهدونه في غيرها وتربُّح منهم الليرات بالملايين، عملاً بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له «ليس من اللائق أن تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع» فقال «الربح لا رائحة له»، وأرسلها مثلاً .. ولذلك يقول الإفرنج أيضًا: «الغاية تبرر الوسيلة»، فما دامت الغاية الكسب فلا بأس من الاحتيال لنيله، ومن أجل هذا تُظهر باريس بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة والناس معهما وما يختارون.

بعد الغروب تعمر في باريس أندية الخطابة والمحاضرة والعلم، وتُلقَى فيها من الفوائد ما يبلغ الأذهان عفوًا صفوًا، ويفيض معين البيان، ويبدو حذق يد الإنسان، ويسعى العالم إلى تعليم الجاهل في ساعة ما تعب في إحضاره الأيام والأعوام، فمائدة الخطب والمحاضرات معروضة، ودروس الفضائل عامة موروودة.

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم والشعراء أشعارهم والمؤلفين مؤلفاتهم والمخترعين اختراعاتهم والصانعين صناعاتهم، كأن الأفكار لا تنطلق من عقالها والأيدي لا تحذق أعمالها إلا عندما ترقد عيون البشر، أو كأن الزهرة ربَّة الجمال لا تحب أن تُملِي على من هم أحوج الناس إلى

طلعتها إلاّ من الليل، ككوكب الزهرة، لا يبدو في مطلع الأفلاك إلا مع الدُّجى، ولذا يحرص أهل باريس أن يجعلوها بعد غروب الشمس مجمع الإنس وريحانة النفس.

وكأن الباريزيين – وهم العارفون بتقسيم الأعمال – عزَّ عليهم أن تمضي ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم، فخصُّوا النهار ببعض الصناع والتجار والعمال والعاملات، والليل بالمفكرين والمفكرات والمؤنسين والمؤنسات والمغنين والمغنيات والممثلين والممثلات .. حتى لا تنقطع حركة، ولا يقف دولاب عمل، وكان بذلك الحظ الأوفر للغرباء، فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد، ولا يفتأ من الفجر إلى الفجر أن أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه.

يقول الباريزيون: «إن بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم، وإنهم مضطرون أن يواصلوا السير ويكدحوا الليل والنهار»، ولكن هذا قول من ملك شيئًا فزهد فيه، والروح ترتاح إلى التنقل .. أمّا الشرقي الذي يرى أهل باريس ويغبطهم على أكثر ما دبَّروه لراحتهم ورفاهيتهم، فإنه يعجب أن يساكنهم زمنًا: كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريس بلدًا؟ كما يُعجب لأهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما يأسف غيرهم عليها! ومن قال بأن دواعي الراحة تُطيل حبال الآجال يستعظم على أهل باريس لو لم يعمروا أكثر من عامة الخلق وعندهم المقيم والخير والعميم.

❀❀❀❀❀

تاريخ عمران باريس

١١

لعلّ باريس كانت في الأصل إحدى تلك الضياع التي كان العاليون ينشئونها في جزر الأنهار الكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشئوا جسورًا يتخذونها مجازًا إلى طرق مهمة، وأول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان ٥٣ ق.م، فدعا القيصر ساكنيها «باريزيا» كما دعا المدينة «لوتيتيا»، وضم إليها سنة ٥٣ نواب الأمم الخاضعة.

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الأصلية، ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الإمبراطور كونستانس

كلود الذي أنشأ فيها قصرًا تُسمَّى بقاياه اليوم بـ«قصر الترم»، وسكن فيه «جولين» لَمَّا نادى به جنده قيصرًا، وكانت الجزيرة مُحاطة بمتاريس، وفيها قصر تُفصل فيه الأمور البلدية، ومذبح على اسم «جوبيتر» أقامة الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في تجارة نهر السين، وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز أسقفية، وعلى ذاك العهد أطلق عليها اسم «باريزي» وهو اسم الشعب الذي يسكنها، وكانت عاصمة بلاده.

فَتحت باريس أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧، فدخل قصر الترم «كلوفيس»، ثم ماتت القديسة «جنفياف» حامية باريس، ووقف العمران على عهد «الكارولجيين»، بل تراجع، فنقل الإمبراطور «شارلمان» عاصمة مُلكه إلى «اكس لاشبل»، وما كان يُقيم في باريس إلا نادرًا، وكان عهد خلفائه عهد شقاء.

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تُؤسَّس تحت حماية الأديرة، وكثيرًا ما كانت تُخرَّب بأيدي أشقياء من السكان، أو بغارات «النورمانديين»، وفي سنتي ٨٨٥-٨٨٦ جاء النورم نديون - وعددهم ثلاثون ألفًا - وعسكروا أمام جزيرة المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهرًا، وبهذا الحصار افتتحت باريس أيام سعادتها، وأصبحت -كما قالوا - رأس فرنسا وقلبها.

وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر امتدَّ عمران هذه القاعدة، وأنشئت فيها أديرة وبيع ومستشفيات ومدارس، وأقيم لها في أيام لويس السادس عمدة ينظر في شئونها وأمور ضبطها وربطها، وبدأ فيها العمران المادي، وعلى عهد فيليب أغسطس - وهو أهم دور عمران هذه العاصمة - كثُرت الكنائس الكبرى، وأُسست الأديرة والمدارس ودور المرضى والأسواق والمجاري

وأحواض المياه والفساقي والمرافئ، وفي سنة ١١٨٥ أخذوا يُبلِّطون شوارع المدينة للمرة الأولى، وفي سنة ١٢٠٤ أُنشئ قصر اللوفر، وبعد ذلك جُمعت مدارس باريس – وكان عدد طلبتها عشرين ألفًا – وجُعل منها مدرسة جامعة أُطلق عليها اسم الابنة الكبرى للملك (السوربون)، وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ ٢٧٥ ألفًا، وصُرفت العناية منذ زمن شارل الخامس إلى لويس الثالث عشر في تزيين مدينة باريس وتطهيرها، وأُنشئت فيها فنادق جميلة.

ولقد كانت القرون الوسطى علي باريس – كما كانت على فرنسا – قرون مصائب واضطراب، فاستباح الإنجليز سنة ١٤٢٠ حمى باريس، وحاولت الفتاة چان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثًا..

ومنذ سنة ١٤٠٨ إلى ١٤٢٠ أكثر الأرمنياكيون والبوركنيون من ذبح سكان باريس التي احتلها الإنجليز من سنة ١٤٢٠ إلى ١٤٣٦، وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها، ومع هذا لا تزداد عروس الغرب إلا عمرانًا!.

وفي سنة ١٥٣٣ وُضع الحجر الأول في أساس دائرة المجلس البلدي الذي هو مفخر البناء في هذه العاصمة، كما أُسس قصر التويلري المشهور على أيام شارل التاسع، وعادت باريس فأصبحت ميدانًا لقتل من دانوا بالمذهب البروتستانتي من أهلها، وانتشرت الفتن الدينية زمنًا، وأصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين.

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفًا، وكثرت الفتن على الملك، وقُتل بعض ملوكها..

وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادي والعقلي، فجُعلت باريس سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة (وكانت أسقفية صغرى)، وفي سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة، وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات، وسنة ١٦٣٥ أُسِّس المجمع العلمي وأُنشِئت بعض الشوارع والساحات وغُرِسَت بالأشجار، وكَثُرت الحارات والأحياء الجديدة، واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة، وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعًا، وذلك في الليالي غير القمراء.

ولقد نشَّط هذا الملك البحث في التاريخ والصناعات والعلوم بإنشاء المجامع الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم، وبترخيصه للناس أن يختلفوا إلى المكتبة، وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط..

وكان عهد الوزير كولبر المشهور عهد عمران هذه العاصمة الذي لم يسبق له نظير، وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفًا..

وعلى عهد لويس الخامس عشر طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من «توتياء» وجعلوها في رأس كل شارع واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت.

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريس؛ إذ أعقبت تخليص الأراضي من الكنائس والبيع لتُنشأ فيها الشوارع والجادات، وكثرت الأبنية العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى .. ولئن كان من الثورات التي حدثت بعد – ولاسيَّما فتنة سنة ١٨٤٨ – ما نشأ عنه بعض الأضرار على العمران، إلاَّ أنَّ الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب، وقد جاء عشرون ألفًا من الألمان واحتلُّوا سنة ١٨٧١ بعض

أحياء المدينة عُقيب الحرب التي فشل فيها الفرنسيون في موقعة سدان، وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام.

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشام أيام الخراب على عمـران باريس، فتقوَّض بها ٢٣٨ دارًا خاصة وعامة، وقُتِل سبعة آلاف جندي، وقُتِل وجُرِح خمسمائة ضابط، وقُدِّرت الخسائر بثمانمائـة وسـتين مليونـًا مـن الفرنكات، وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسـباب الراحـة، وكـان مـن المعارض الثلاثة التي أقامتهـا بـاريس سـنة ١٨٧٨ و ١٨٨٩ و ١٩٠٠ - ولاسيَّما المعرض الثاني الذي أقيم تذكارًا لمرور مائة سـنة علـى الثـورة الفرنسية الأولى - أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسـيين، وأول دليل على ارتقائهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجري.

إجماليات في عمران باريس

١٢

باريس واقعة في الدرجة ٤٨، ٥٠، ٤٩ من العرض، يشقها نهر السين إلى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي، ويتخلَّلها في وسطها عدة آكام وجبال مهَّدتها حتى غدت كأنها بعض أجزائها، منها ما يبلـغ ارتفاعـه ١٠١ متر، ومنها ١٢٨، ومنها ١٣٦، ومنها أقل من ذلك .. وتبلغ مسـاحتها ٧٨٠٢ هكتار، ومحيطها ٣٦ كيلومترًا.

وطولها من الشرق إلى الغرب نحو ١٢ كيلومترًا، وعرضها من الشـمال إلى الجنوب نحو تسعة كيلومترات، وطول طرقها العامـة ٨٨٨٠٠٠ متـر، فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتارًا، ولها ٧٠ بابًا أو منفذًا، منها ٥٧ بابًا، و ٩ طرق للسكة الحديدية، وطريقان لمجـرى السـين، وطريقـان

لترعة سان ديني وأورك .. وعدد سكانها بحسب الإحصاء الأخير ٢٧٦٣٣٩٣، وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحامًا إذا قيست بالمدن الأوربية، ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ ألفًا، والولادات ٦٥٠٠٠، والوفيات ٥٠٠٠٠.

وتقسم من حيث أمورها الإدارية إلى عشرين قسمًا، لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون .. ولباريز ٢٣٤٥ زقاقًا و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعًا و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى، و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفًا، و ٧١ مجرى عامًا و ٤٢ رصيفًا و ٣١ جسرًا و ٤٨٠٠٠ بيت .. وتمتد الطرق المغروسة بالأشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ مترًا، وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق.

تُضاء باريس في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و ١٥٧٥ مصباحًا كهربائيا .. وقوّة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريس ٢ . ٣٠٠ . ٠٠٠ مصباح، كل واحد ذو عشر شمعات، ويجري ماء الشفة إلى مدينة باريس في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة- خلافًا لا يدَّعيه بعض المتاجرين بالخمور من أن ماءها مُضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم - ومعدل ما يجري منه إليها ٣١٠,٠٠٠ متر مكعب، يأتي إلى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و ٧٤٣٣ مضخة للحريق و ١١١,٦٩٥ محلاً لشرب المارة .. ويجري إليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب - وهو للصناعات وغيرها - يجري في ١٦٤٦٠٠ آله عامة.

في باريس ١٦٠٠٠ عربة بالخيل، وأكثرها بحصان واحد، والمركبة ذات الحصانين هي في الأكثر عربات خاصة بالأعيان وأرباب الفنـــادق، وفيهـــا ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زُهاء ٣٠ مليونًا من الناس في الســـنة، و ١١٩ خطًا من خطوط الحوافل (أومنيبـــوس) والترامـــواي، وفيهـــا ٢٥٠ عجلـــة أومنيبوس و ١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب، وعشرة آلاف مركبة خاصة، و ١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل)، وقد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلاً و ٤٠٠٠٠ مركبة نقـــل، ولا تدخل فيها الكميونات .. وفي باريس ١٦٠٠ ألفـــا مـــن الـــدراجات و ١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في الســـنة، وســـككها الحديديـــة المحدقة بها تحمل ٣١ مليونًا، ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهـــاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون إليها.

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و ١٥٩ مليون كيلو من اللحم و ٣٦ مليون كيلو من السمك و ٦٦٩ مليون بيضة و ٣١ مليون كيلـــو من الطير والصيد و ٦ ملايين هكتولتر من الخمور و ٦٩٢٠٠٠ من الجعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية.

وفيها ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم، يعيش منها مائة ألف نســـمة .. ولتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص، ولتجارة الفرش والأثاث ٣٢٠٠ محل، وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الأمتعـــة والثيـــاب والأزياء ٩٥٠٠ محل (فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة)، وعدد محـــال الأطعمـــة ومعاملها ٧٥ ألفًا (فيها ٤٣ ألف مستخدم وخمسمائة ألف عامل وعاملة، فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة).

وأكبر وسائط النقل وأسرعها في مدينة باريس السكة الحديدية الكهربائية تحت الأرض التي يسمونها «المتروبوليتين»، وهي تدل على عظمة العقل وآخر ما وصل إليه الإنسان من التفنن، وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولا في لندن، افتُتح الخط الأول منه سنة ١٩٠٠، وله الآن ستّة خطوط – منها ما طوله عشرة كيلومترات ومنها أكثر وأقل إلى السبعة عشر كيلومترًا – تربط أجزاء المدينة بعضها ببعض، وينتقل الراكب إن أحب من فرع إلى فرع آخر بدون أجرة، وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة – وهو يسير تحت نهر السين – ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك، وهو سريع نظيف رخيص، يدفع الراكب في الدرجة الأولى ٢٥ سنتيمًا، وفي الدرجة الثانية ١٥ .. وقد اقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكبًا، وكان عدد من أقلّتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩,٧٠٠,٥١٩، وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زُهاء أربعة وأربعين مليارًا، وهم يعملون أبدًا على تهويته على طريقة لا تُخليه من الهواء النّقي، ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن .. وقد يتأذّى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج، ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر.

❋❋❋❋❋

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتَّى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة إلاَّ إذا درس لغتها وتاريخها وآدابها، وللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل، ولذلك كان من الرَّاغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوربا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبرًا بأهله .. وكان للغة العربية المقام الأول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة، ودين دان به أهل الأقطار المعتدلة من صميم الشرق.

فتوفَّروا على أحكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خُلَّص أبنائها الذين نشئوا في حجرها، وأحكموا ملكة نظمها ونثرها .. وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المضمار، وكل مملكة من ممالك أوربا وأمريكا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلُّون إلى تلقُّفها من كل حدب.

ولقد دعوا تعلُّم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات – أو الاستشراق – والمشتغلين بها علماء المشرقيات – أو المستشرقين – وقديما كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيين أكثر من غيرهم، وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان .. والألمان أمهر الغربيين في النطق باللسان العربي وأكثرهم نبوغًا فيه، وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيين والنمساويين والمجريين والإيطاليين والهولنديين والإنجليز والروس والإسبانيين والبرتغاليين والأمريكيين والبلچيكيين كثرة عدد وحُسن معرفة ..

ولا عجب؛ فالألمان نبغوا في كل شأن من شئون الحياة والعلم والصناعة، ودرس العربية كان له النصيب الأوفر من عنايتهم.

وقد اشتُهرت في فرنسا الجمعية الآسيوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية، وقد درست أحوالها وزرتهما غير مرة، وهأنذا أُلخص للقارئ ما عرفته عن الجمعية الآسيوية بواسطة صديقي المسيو لوسين بوفا أحد الأعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار إليها، فقد كتب إليَّ ما تعريبه: «إن فكر تأسيس جمعية علمية تُعنَى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر، ولكنه لم يتم إلا بعد زمن طويل، فقد أُنشئت الجمعيات الأولى للباحثين في المشرقيات خارج أوروبا، مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨)، والجمعية الآسيوية في البنغال (١٧٨٤)، والجمعية الآسيوية في بومباي (١٨٠٥) .. ومنذ ذلك العهد أُنشئت في أوربا وأمريكا عدة جمعيات للمستشرقين، ولكن أقدمها عهدًا الجمعية الآسيوية في باريس أُسِّسَت سنة ١٨٢٢م».

وعلى ذلك العهد رأي جماعة من مستشرقي فرنسا أن الحاجة ماسة إلى أن يجتمعوا أو يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم، وأن يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم، وكان المسيو دي لاستي أنشط هؤلاء العلماء، وبفضله أُسست الجمعية الآسيوية التي ناب في رئاسها ما يقرب من ثلاثين سنة، كان الرئيس إذ ذاك سلفستردي ساسي أحد أعضاء المجمع العلمي وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية، وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا، وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيين، وكان من ومؤسسي الجمعية أيضًا كوسان دي برسفال وكارسين دي فاسي ورموسا.

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسيوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره، ولا تزال إلى اليوم نموذج العمل الراقي وسيدة المجلات الأخصائية في فرنسا.

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها إليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يُفيد العلماء من أعضائها، وجمعت أيضًا مجموعات من النفوذ القديمة والتحف البديعة، ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه، وطُبعت على نفقتها عدة مصنفات، وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة .. وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم الأعمال التي تُعنى بها، وخصَّت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العملية النافعة، كما عنيت بمراسلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم.

وإذ ظهرت منافع الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد أن ضعف أمرها بضع سنين إلى مكانتها الأولى، ولم تلبث أن قويت عن ذي قبل وانتشرت كلمتها، فرأسها أمثال سلفستردي ساسي ثم جوبر ورينروموهل وكارسان دي تاسي ورينيه ورنان وباربيه دي مينار وسينار، ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسين دي برسفال وبارتلي سلان هيلير ودفرني وبوريه دي كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها إيبل ريمورا وجيمس ودار مستثير وشافان.

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدَّة أماكن، ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقرًّا في بناء ملاصق للمجمع العلمي، وذلك بفضل رئيسها إذ ذاك «رنان» الفيلسوف المعروف، ونالت من الحكومة الفرنسية عدَّة معونات رسمية،

ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عدّة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس، ولاسيّما المخطوطات التي أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية.

وما عدا المجلة الآسيوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتي صفحة كل شهرين، ويتألّف منها مجلدان كل سنة، فقد نشرَت على نفقتها ٢١ مصنفًا تتألف من نحو ٤٠ مجلدا، وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل «مروج الذهب» للمسعودي نشرَته بنصه العربي وترجمته إلى الفرنسية وهو في تسع مجلدات، ونشرَت رحلة ابن بطوطة في أربعة مجلدات، وكتاب «المانافستو» في ثلاثة مجلدات.

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية، وأعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضوًا، منهم ٢٦ من الأجانب .. وهي تبعث بمجلتها إلى نحو مائة جمعية علمية ومدرسة جامعة أو مجلة دورية، وإلى ثمانين مكتبة من مكتبات العالم على يد نظارة المعارف الفرنسية، وللمجلة ١٣٠ مشتركًا ليسوا من الداخلين في الجمعية، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ ٢٥٦٣١ فرنكًا و ٦٦ سنتيمًا، وفي مكتبتها نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صحيفة و ٢٠٠ كتاب مخطوط، وفيها مجموعة من النقود القديمة.

هذا إجمال حال الجمعية الآسيوية وفيها من الأعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذي ترمي إليه، إلاّ أنهم يؤدون الراتب السنوي المضروب عليهم ويتناولون المجلة لقاء ذلك، وكثير منهم لا يعرفون من أحوال الشرق ولغاته وأصول سكانه أكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت.

أمَّا مدرسة اللغات الشرقية الحية – وهي التي تُقرئ مبادئ اللغات الشرقية، وهي مخرج لأعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق- فاسمها (فيما أرى) أكثر من نفعهـــا، وما دامت فرنسا تراعي الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فإن تعليم اللغات الشرقية يبقى صوريًّا لا حقيقيًّا، وهيهات أن ينشأ لفرنسا – وهي على هذه الحال – أمثال المستشرقين الأول من أبنائها الذين باهت بهم الأمـــم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها.

❁❁❁❁❁

درس من سلانيك

١٤

بينما كنت مأخوذًا بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسية، وأقرأ مثالاً مُجسمًا من الارتقاء الغربي، ولا أفرغ ليلي ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وأغوص في مكاتب باريس - ولاسيَّما مكتبة الأمة ومكتبة السوربون - وبينما تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف بأي لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر، وبينما أنا أفكر في بلادي وما يجب علي أن اكتب لها مما تأثَّرت به عواطفي وأخذ بمجامع قلبي، حَمَل إلى البريد من سلانيك كراسة باللغة الافرنسية من قلم «صموئيل سام أفندي ليفي» رئيس تحرير جريدة «سلانيك الفرنسية» وهي محاضرة ألقاها في نادي الاتحاد الرياضي في ذاك الثغر أواخر الشهر الماضي عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدَّة، فرأيت أن أُلخصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الأوربية، وأن ابن سوريا إذا أقامة ما شاهده في غربي أوربا وأقعده بما فيها من أثار العمل والجد، فإن ابن مقدونيا لا ينقص عنه تأثرًا فيما شاهده من أواسط أوربا وشعور أبناء الوطن واحد .. قال الكاتب السلانيكي:

في ستة وعشرين يومًا ساح مائتان وخمسون رجلاً من أهالي الآستانة وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى، قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلومتر في السكك الحديدية و ١٥٠٠ في البواخر والعجلات والسيارات وعلى الأرجل، فوقفنا في خمسٍ وعشرين مدينة كبرى وصغرى، وزرنا نحو ١٥٠ دارًا صناعية ومعهدًا علميًّا أو مدرسيًّا وفنيًّا وإداريًّا ومتحفًا وغيره،

وحضرنا مائة دعوة وغيرها أقامتها لنا ١٥ جمعية، و٢٥ غرفة تجارة، حكومة النمسا والمجر، فلم يبقَ من تلك الرحلة إلاَّ أن نذكر شيئًا من ذلك الحُلم الذي مرَّ علينا في رحلتنا، ونتثبَّت من تلك الأشباح لنُحسن الانتفاع بها في مادياتنا، وتكون لنا علمًا ودرسًا نافعًا، ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والأوضاع التجارية والمدرسية والإدارية عن أمم، ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية - كما قال البارون هلوموتسكي فيما خطبنا به - لها مساس كلي بالمسائل السياسية، وبينها روابط ولوازم ولا سبيل إلى البحث في الأولى مع إغفال الثانية.

ولقد كنا نقضي بالعجب من كل ما يقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عمَّا إذا كان ما تقع عليه أنظارنا من مُدهش الأعمال هو من صنع أيدي البشر، وهم الذي قاموا بهذه العجائب؟ وبحق ما قاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا عندما غادر النمسا «إن أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذي نتأثَّر به كلنا، كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرُّقي» .. نعم، لقد تجلَّت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل إليها التجديد من كل أطرافها، وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة.

وكثيرًا ما اتَّفق لنا أن زرنا معهدين أو ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي أقاليم مختلفة، فكنا نجد في كل منها - غير أساليب العمل التي يقضي بوجودها العلم - أعمالاً كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الإقدام الذاتي وقوة إرادة شخصية وحب في البحث، وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل .. كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية

والمدرسية والإنسانية .. ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الإحسان ومعونة العملة تراءى لنا أن النمسا في مقدمة الأمم في هذا الباب، ومن ذلك أن ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط، بل يعيشون كما يعيش الملوك .. وما ننسى «لانتس» ملجأ المرضى العصبيين في «شنهوف» وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية، وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك، وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير.

وبينما كان رفقاء رحلتي يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها في بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها، كان يلفت نظري خاصة منظر اتفقوا على تسميته باسم «مملكة هابسبورج»، فإن هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفُسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة، ولكن هذه الجماعات – على اختلاف أصولها – قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع، وما كانت وحدة هذا المزيج إلاَّ نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها، فرأت أن تترك لكل قوم استقلالاً إداريًا كان غاية الغايات في إبداعه، وبذلك اتّقت الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة .. وهذا الرأي في توسيع سلطة الأقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات، بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل، وذلك أن كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير ورجال نوابغ أذكياء هم خيرة رجاله، فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم ..

وكان من ذلك أن استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة، وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الأعمال منوَّعة الأساليب تمت في عامة فروع الجهاد الإنساني .. وكان ذلك من أهم المشاهد وأجملها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين.

تألفت مملكة هابسبورج من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سببًا لضعف تلك المملكة، ولطالما طحنتها مطامع جيرانها واعتداءاتهم، ولكن لما عزمت الحكومة أن تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دستورًا قائمًا على المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها إلى الأمام.

فعلى نواب العثمانيين في مجلسنا النيابي أن ينظروا في أمر العناصر العثمانية، ويحلوها كما حلَّتها النمسا والمجر التي كانت في حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فأحسنت حلها على ما يجب، فهي سابقتنا في هذا الباب، وما علينا إلا أن نأخذ عنها، وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدًى.

وهنا ألتفت إلى رفاقي في الرحلة – الذي دخل عليهم اليأس من ارتقائنا ممَّا شاهدوه من الشوط البعيد الذي قطعه جيراننا – وأقول لهم:

إن ما شاهدناه عندهم ليس إلا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وإرادة قوية وأساس راسخ، وإذا أحببنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا إلا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور، ونستخدم جميع القوى الحية في الأمة، وأن تعمل الحكومة عملاً فعَّالاً لما فيه إنهاض الشعب، كما على الشعب أن يعمل لتعضيد الحكومة

الصالحة .. وبالجملة أن يعمل كلاهما، بل يعمل الكل للواحد والواحد للكـــل، ويعرف كلٌّ الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة.

وهنا خاض الكاتب في مسألة نهوض العثمانيين، وأنها موقوفة على التعليم، وأننا لا ننجح إلا إذا حذونا على الأقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالأمس (كممالك البلقان مثلاً)، وأرسلنا من شبابنا من يتعلمون العلـــوم الكاملـــة فـــي كليات الغرب، فمن أعظم نجاح تلك الإمارات أنها ما زالت منذ ربـــع قـــرن ترسل بشبانها إلى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في أوربا إلا وتجد منهم كثيرين، وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الأعمال في بلادهم ونفخوا فيها مـــن أرواحهم، ولسنا نضطر إلى الأجانب لتعليم أولادنا في بلادهم، بل يجـــب أن نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسســـون فـــي بلادنـــا مـــدارس ودور صناعات، كما نحن في حاجة إلى رءوس الأموال الأجانب لاستخدامها فـــي أعمالنا ومشاريعنا، وأن نكون في سياستنا الاقتصادية كما قال أرنست لافيس المؤرخ الفرنسي في تعريف السياسة إنها علم خديعة غيرك من الناس وأنـــت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو أنهم يحاولون خداعنا.

❋❋❋❋❋

دار معونة العلماء

١٥

هي الدار التي أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير .. وتير هو العالم المؤرخ وأول رئيس للجمهورية الثالثة، نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأحبت امرأته أن تُخلد ذكراه بعد مماته فأوصت بمال يُصرف على تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلاً من شبان العلماء، يُكفَون فيها مؤنة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي يُراد إجلاسهم في قاعاتها .. ماتت العقيلة تير على حين فجأة، فنفذت وصيتها شقيقتها، وأوقفت مالاً بلغ ريعه مائة وخمسين ألف فرنك.

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطّلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الإيقان بالمثل الأفرنجي القائل بأن «فرنسا تخترع وألمانيا تعمل» .. الفرنسيون يبتكرون في كل شيء، وهذه الدار هي من مبتكراتهم، وما أظن لها مثيلاً عند الألمان والإنجليز والأمريكان سادة العالم في العلم وقادة الإبداع والاختراع.

زرت هذه الدار مرتين، وتشرّفت بالتعرف بمديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو إميل بوترو، ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيين اليوم هم «بوترو» و«فوليه» و«ريبو» و«برجسون».

ولم أتمنّ في حياتي أن أكون فرنسي الأصل والجنس إلا لما رأيت هذه الدار، وعلمت أنها لا تقبل في حجرها إلا الفرنسيين .. تمنيت أن أعيش فيها

المدة المحددة لكل طالب، أتفرغ لدرس أبحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن إتمامها.

هذه الدار سُميت باسم تير Lx Fondation Thiers، والأولى أن تُسمَّى «دار معونة العلماء»؛ لأنها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة دينية كالمدارس الدينية، بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة من شبان العلماء من نابغي الكليات يحملون شهادة «الليسانس» أو «الدكتوراه» في الآداب أو العلوم، أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمي في الأبحاث التي تجري فيها المسابقة بين أرباب الأفكار والأقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة في باريس، فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها إلى الفن الذي يريدون التخصُّص فيه، فيبحثون بأنفسهم لأنفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو إميل بوترو الذي يعيش وإياهم في المعهد كما يعيش الأب مع بنيه، ويمدهم ويهديهم إلى أقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم، ووضع مؤلف أو مؤلفات نافعة في الفنون التي هي أحب من غيرها إلى قلوبهم، ولا ينشرونها إلاَّ إذا نظر هو فيها وأقرَّهم عليها .. وأي عالم لا يحب أن ينتفع في عمله برأي عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين أو كاد من عمره وهو يُفني لياليه وأيامه في العلم والفلسفة.

يشترط فيمن يدخل دار معونة العلماء أن يكون ممتازًا بعقله وأخلاقه، ويُفضَّل من يرتضي أساتذته أخلاقه ونبوغه ويشهدون فيه شهادة حسنة، وأن يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج وقد قضى الخدمة العسكرية، ويُعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة، وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية، وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة

والرفاهية، إحداهما لنومه والثانية لعمله، بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة العشر - وهو عدد الموجود منهم في المعهد - أبدًا موسعًا عليهم، لا يُطلب منهم إلا أن يؤلفوا ويبحثوا أبحاثًا علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم .. ويُقسَّم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ من شبان العلماء إلى رياضيَّين ومؤرخَين ومتشرِّع في السياسة والاجتماع وعالِم في اليونانيات، وحقوقيَّين وفيلسوفَين ومؤرِّخ وموسيقار وعالِمَين في الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسية وجغرافي..

وقد أُنشئ هذا المعهد ١٨٩٣ فيكون عدد من أعانهم على الإبحار في العلم حتى الآن ٨٠ عالمًا، وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة، وقد بلغت واردات هذا المعهد مائة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة الآلاف فرنك.

قام معهد تير العلمي في أجمل حي من أحياء باريس، في حي الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغنَّاء غربي مدينة باريس - في الحي الذي تؤجَّر الدار فيه اليوم بثلاثمائة ألف فرنك - وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق في مكان يجمع إلى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المُفرَّقة في مكتبات باريس المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها، بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعية، وليس في المعهد مكتبة كبرى لأنه - على اتساع مساحته - لا يتسع صدره لكل ما يلزم المؤلفين فيه من المواد، بل فيه فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والأمهات التي لا غنى لكل عالم عنها، وما عدا ذلك فمكتبات باريس

وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوه من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ما راقهم كل ساعة.

وليست هذه الوسائط هي كل ما في معهد تير من المعونات لعلمائها، بل أن لهم – بفضل الشيخ الرئيس مديزهم الحكيم الكبير – أهم الأسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته، فهم كسكان الجنان توفَّرت لهم كل الوسائط، فلم يبقَ عليهم إلا أن يقطفوا من ثمار يحبونها، كلٌّ قريب ودان.

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة، فيتناولون طعامهم معًا، ويلعبون ويتنزهون معًا، ويبحثون عن العلوم التي يعملون بها معًا.. ويظلون هكذا يعيشون عيشة الأتراب العاملين على ما تعلموا في طفولتهم في المدارس والكليات، يستفيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة، ويعاون بعضهم بعضًا معاونة الإخوان، ويترفَّهون رفاهية لا يتمتع بها إلاَّ عقلاء الأغنياء.

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجتمع العلمي، وحققت فيه مؤسستاه العقلية تير وشقيقتها ما رسمه النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمي سان هيلير، فكان تير الذي عُدَّ من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تُذكر على الدهر، فتشكر نافعًا لأمته في حياته بعقله وفي مماته بماله..

فمتى يصل الشرق يا ترى إلى هذه الدرجة في العقل والإحسان؟ ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار إلى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم؟

إن شبان العلماء في هذه الدار بعد أن تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون – لهضم ما تعلموه – أن يعانوا لينشأ منهم أفراد متفرِّدون في العلم،

فيتحوّلون بهذه الواسطة من تلامذه إلى أساتذة أكفاء أن يكفوا أنفسهم وان يوجدوا ويخترعوا، وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على ما يشاءون، فالعمل - كما قال إميل بوترو - هو السرور، على شرط ألاّ يكون صاحبه مُستعبدًا فيه لأحد ولا لمؤثر، بل يقوم به مدفوعًا فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهي الإيجاد والإبداع، وما التربية إلا أن تخرج كل إنسان على ما ينفع فيه ويتيسّر له النبوغ في فروعه .. التربية هي تخريج المرء أولاً في مجموع المبادئ العامة التي هي وقف خلَفه لنا أسلافنا بتجاربهم، وسمُو ذلك العقل ثم تخريجه ثانيًا في أن يكون متفردًا في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو ما يتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث، ثم ينشأ - ثالثًا - ممن دخل في هذين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف إليه العالمون على اختلاف معارفهم، ويبحث في أن يوفق توفيقًا حسنًا بين الحياة الخاصة والحياة العامة، وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن.

❁❁❁❁❁

تآخي الغربيين

١٦

«كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة إليه وتحبيبه إلى النفوس»

عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها في كثير من أعمالهم، وكان من ثمرات الدعوات السياسية الدينية تأليف الوحدة السويسرية والألمانية والأمريكية، وتوحيد كلمة الجزر البريطانية، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية، وكثرة من يدينون بالمذاهب البروتستانتية والفلسفية.

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها، رأوا أن بلادهم تنتفع كثيرًا من تحسين صلاتها مع أمريكا، فألفوا جمعية دعوها «جمعية فرنسا أمريكا»، مؤلَّفه من علماء وسياسيين وقادة واجتماعيين ومعلمين، وعلى رأسها المسيو «جبرائيل هانوتو» أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق، وقد انشئوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو إلى هذا الغرض، افتتحها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون إليه، وكتب في المجلة الأسبوعية مقالةً طويلة في هذا الشأن، فرأيت أن أُلخِّص للمشارقة لُباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننعى على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا.

قال هانوتو: «إن النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم، ولو وجَّهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ إلى أمريكا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم إلى دعوة أمتنا لتعريفها بما نُعرِّفها به، هبَّت علينا الزعازع السياسية

والاقتصادية منذ ذاك الحين، وإذا كانت قد سكنت الآن فقد وجب علينا أن نعمل عملاً يحمل في مطاويه أحسن الفوائد..

تبدّلت الأرض غير الأرض في خمسين سنة، حتى صحّ أن نقول إن قارتي آسيا وأفريقيا كأنهما اكتُشفتا حديثًا، فكَثُرت مواصلاتهما، وحُملت إليهما المدينة والحضارة، وجرى تعلميهما واستعمارهما .. وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة؛ فقد غيَّر دليسبس بفتحه ترعة السويس شكل الأرض، كما أن جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسمًا كافيًا من قسمة الأراضي الجديدة..

وبينما كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ويستغني عنا، فإن مسألة بنما المشئومة التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد أثّرت في علاقاتنا مع أمريكا الشمالية والجنوبية، واستغرقت التدابير الأوربية الكبرى - التي اضطررنا إلى مجارتها - فكرنا وقوتنا المادية، وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها إسبابنا في العمل، واحتفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاءً وأكثر مضاءً وأقل مطالب ومشاعب..

نعم، تقدَّمنا وتأثلنا، ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابوليون على حين كانت أمريكا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدَّم تقدُّمًا لا يُوصف؛ فقد كان سكان الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ ٣٦ مليون، أي ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب، فأصبحوا سنة ١٨٩٠ ٦٣ مليونًا، وهاهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليونًا .. وفي كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان، وفي الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليونًا، وأصبحت أمريكا الجنوبية ٤٥ مليونًا وكان فيها سنة ١٨٩٠ ٣٥ مليونًا.

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك، فأصبحت اليوم زهاء ١٦ مليارًا .. وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ ٧٥٠٧٩ مليونًا، فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفًا، ومجموع تجارة أمريكا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف، وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات، منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية.

وعلى الجملة فقد بلغ ما هناك من نفوس ١٦٠ مليونًا من البشر، ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك، وأحدثت أمريكا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار، فأثرت في فرنسا تأثيرًا غير قليل، وكانت هذه إلى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من إنجلترا، أي لها المقام الثاني في التجارة، فأصبحت اليوم في الدرجة الرابعة بعد إنجلترا والولايات المتحدة وألمانيا، أي أننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديمًا، فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الأولى، أو أن نغتنم الوقت الضائع، فالمسألة ليست متعذرة، ولكن تقتضي لها الإرادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة، والعودة إلى تقاليدنا والانتفاع من إسبانيا.

أمّا الولايات المتحدة لما لها من المركز الذي أحاط بطرفي البحرين المحيطين فهي المهيمنة على أعمال العالم، فإن عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد أن يجيء زمن تتداخل فيه في السياسة الأوروبية، وإن الفرنسيين في كندا ليبلغون مليونين ونصفًا، ومثل هذا العدد من الفرنسيين منتشر في جمهورية الولايات المتحدة - ولاسيّما في الجنوب - واللغة الفرنسية في هايتي هي اللغة الرسمية، فإذا حسبنا المستعمرات الفرنسية في

كويان وجزر الأنتيل يصبح عدد الفرنسيين ومن يتكلمون باللغة الفرنسية من الأمريكان ليس بقليل..

وإن مالنا من الأيادي في أمريكا - ولاسيَّما وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسي باسم واشنطون الأمريكي اللذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة - وما وضعناه فيها من أموالنا وقمنا به في جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية .. كل ذلك يدعونا بلسان الحال إلى أن نصل الحاضر بالغابر وإن لم تكن سلسلة الصلات قد قُطعت كل القطع..

والناس - مهما تقلبت بهم الحال - لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدنية، وإذا نسوها فإنهم لا ينسون باريس التي تنشر أنوارها على العالم، وإليها يحج الألوف من الأمريكيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة .. وكلما كثرت الرفاهية في ديارهم تدعوهم الدواعي إلى نزول باريس .. وما في أراضي فرنسا من المصايف والضواحي - كالشاطئ اللازوردي (كوت دازور)- فإن مجموع الأمريكيين الذين يختلفون كل سنة إلى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح، فعقد الصلات بين فرنسا وأمريكا فيها كل ما نحتاجه من الأسباب القوية، فإن كانت أمريكا الشمالية تدعونا إليها بما فيها من القوة والعظمة فأمريكا الجنوبية تنادينا إليها القرابة؛ لأن عناصرها لاتينية وتربيتها لاتينية، فمن كندا إلى مضيق ماجلاّن مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتيني ممزوجًا في شرايين العناصر الجديدة، وعلى أمريكا الجنوبية يصح إطلاق المثل القائل: ‹هذا دم لا ماء›.

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا في القارات والأقطار الأخرى؛ فقد كانت جمعية ‹أفريقيا الفرنسية› أعظم معاون للحكومة في أعمالها الاستعمارية، وجمعية ‹آسيا الفرنسية› أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة و ‹جمعية مراكش› تعمل على نشر الأفكار الفرنسية في الغرب الأقصى .. فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ إلى أمريكا من معارفنا بقدر ما نأخذ عنها، فلا نرمي إلى الدخول فيها ونشر كلمتنا بين أبنائها، بل نود أن نعاونها ونحالفها، نريد أن نتعلم عليها - ونحن أبناء المدنية القديمة - درسًا في النشاط والمضاء، فإن كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن الحديثة معاملها ومصانعها، فنحن نقنع بامتصاص التاريخ، أما هم فينشقون أريج المستقبل..

قام في واشنطون مثل عملنا هذا، يرمي إلى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه ‹مكتب الجمهوريات الأمريكية›، أنشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الأخرى، ومنحه المستر كارنجي مبلغًا جسيمًا من المال، وهو يفتح قاعات لإلقاء المحاضرات والاجتماع، ومكاتب لأخذ المواد والتعليمات، وخزانة كتب ومجلات كبرى، وينشر مجلة للدعوة إلى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية .. كما أن إسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين إسبانيا وأمريكا، وبمثل ذلك قامت البرتغال للتوفيق بينها وبين البرازيل، وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الأمريكان وتلقينهم التربية الجرمانية .. أما شعار جمعيتنا فهو أن نحبِّب فرنسا إلى نفوس أمريكا ونُعرِّفهم بها، ونحبب أمريكا إلى نفوس الفرنسيين ونُعرِّفهم بها».

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الأمريكية التي أدهشت العالمين المدني والوحشي، فإن مدن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرانسيسكو

قد امتازت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة، فقد كان في الثماني والأربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والأرض الهندية وألاسكا وجزر هاواي ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠، ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فدانًا، وثمنها ٢٠ مليارًا ونصف مليار دولار - أي ١٠٦ مليارات من الفرنكات - وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ ٨ مليارات دولار، منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و ٦٦٤ من الحنطة و ٨٠٧ من القرطمان و ٣١ من الجادوار و ١٦٦ مليونًا من الشعير و ١٣ مليون باله قطن و ٧٠ مليون طن من العلف و ٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و ١٣٥ مليون ليرة من الصوف النقي.

وكانت مساحة الغابات الأهلية ١٦٨ مليون فدان، تغل كل سنة ٦٦٦ مليون دولار، دع عنك الصيد في بحار أمريكا وأنهارها وهو يُباع بعشرات الملايين من الدولارات.

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل، رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار، يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠، يتقاضون أجورًا يبلغ مقدراها ٢٦١١ مليون دولار، وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الأولية، وتبيع بما قيمته خمسة عشر مليارًا .. وفي سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون دولار.

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧ ٢٣٧ ألف ميل، أي ٣٨١ ألف كيلومتر، لها ٥٥,٣٨٨ قاطرة، و ٢,١٢٣,٠٠ مركبة،

فيها من المستخدمين ١٦٧٢,٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار شهريًا، وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليونًا، وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن، وثقل الطنات الألفية (الألف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ مليارًا، ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ مليار دولار، وصافي ريعها أربعة في المائة .. وفيها - عدا هذه السكك الحديدية - ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية..

وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ ١١٩٤ مليون دولار، والواردات ١٨٦٠، ومجموع تجارة أمريكا الخارجية ٣٣١٥ مليونًا.

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لو لم تكن الأخلاق أساس عظمتها الاقتصادية، وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أمريكا - كما عظمت منزلة رجال المال والأعمال والصناعة والتجارة - وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية، وأصبحت بعض المدن - مثل بوسطون التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل - ميدان الآداب والعلوم .. وأن كثيراً من الأسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة في سياستها، ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو .. وليس للأمريكان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم، ولا يجدون بلدًا مثل فرنسا تتلقاهم بقبول حسن وتوفر الإرادات على حبهم .. وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم؛ فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا ما يتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات أمريكا، فينشئون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

ولما وصل النقل إلى هذا الحد وقف القلم فذ كرت شيئًا من حال الشرق .. ذكرت حال العثمانيين والإيرانيين، وأنهم وإن كانوا من أمم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهي الإسلام لا تقول بجنس ولا عنصر، فلو كنا وكانوا على شـــيء من العلم الحقيقي، أمَا كنا ندعو إلى إنشاء جمعية عثمانية إيرانية كما ينشـــئ هانوتو اليوم جمعية فرنسية أمريكية؟

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر براكينها إذ ذاك، ويتذرَّع بعضهم بالسياســة يتوكئــون علــى عكازها ليُنفِّروا بين القلوب ويفرّقوا بين أبناء الأب الواحد، وهنــاك تــدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر .. وإن العاقل ليربط على قلبه بيده عندما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لإبقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني، فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالإيراني؟ فاللهم علِّمنا علمًا نُحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون.

******

محاضرتنا في نهضة العربية

١٧

في باريس ثلاث جمعيـات شـرقية: الأولـى جمعيـة «شـبان الأتـراك العثمانيين»، والثانية «جمعية الجامعة الإسلامية»، والثالثة «جمعيـة الأخـاء المصرية» .. اتخذت كل جمعية لها ناديًا، وأخذت تعمل على ما فيه غايتهـا، وقد كلَّفتنا جمعية الأخاء المصرية أن نُلقي عليها محاضرة في نهضة اللغـة العربية في المائة سنة الأخيرة، فألقينا عليهم المحاضرة الآتية في ناديهم فـي قهوة ڤولتير أمام دار تمثيل الأوديون.

سادتي الإخوان:

سألتموني – سعدت بكم أوطانكم – أن أحدِّثكم بطرف من تـاريخ نهضـة اللغة العربية في المائة سنة الأخيرة، وما منكم إلا من أستفيد منه وأتشـرَّف بالأخذ عنه .. أنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم، يُتوقَّع منكم أن تُنيـروا آفاق جهله بأنوار معارفكم، وأن تُعمِّروا أكناف معالمه ومجاهله بما ثقفتمـوه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صـحيح وآداب رافعة .. فإني لي – وأنا نازل بينكم مُتعلِّمًا لا مُعلِّمًا – أن أفوه في حضرتكم بكلام، وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابـذة البـاحثين والعلماء، وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلاَّ حال مـن يحمـل التمر إلى هجر أو المسك إلى أرض الترك، أستغفر الله، بل إن حال من يُلقي محاضرة على جمعية «الأخاء المصرية» في باريس أعجب وأغرب.

إخواني: تعلمون – قرَّت بكم عيون مصر – أنه أتت على اللغة العربيـة أدوار وأطوار، وعرض لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوَّة

وعزّة وذلّة، وأن أتعس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة، وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة .. ثلاثة قرون – بل أكثر – مضت في مرض مستحكم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها، وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيرًا من حاضرها وغابرها، بيد أن لغة يُفرض على زُهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلّموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام في الأرض مسلم يُوحّد الله.

لابدَّ لكل حركة من سبب .. وسبب ما نال العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها، فأصبحت الأمور العلمية صورية يُنظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق، واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد، وعدُّوا ما عداها من العلوم فضولاً لا غناء فيه، وساعد على انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام، ولا علم حيث يفقد الأمن .. وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو تربية من لم يتربَّ.

وإن كانت قدرة المولى تعلّقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن إذا قلنا له إن مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي، وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقًا بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيين، فكان من أعماله الجليلة ما خلّد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم، لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق .. والشرق أبو المعجزات والكرامات..

ليس من يجهل أن «محمد علي» كان أميًا أو يقرب من درجة الأمية، مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤوديًا، ولم يخُط سطرًا واحدًا لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حُسن الخط والقراءة فقط .. ومع هذا فقد عنى بما لم يعن به أحد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قرعوا الدروس الوسطى، فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليتخصَّصوا في العلوم التي أُولعوا بها، حتى إذا عاد أحدهم وأتمَّ تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويُخرج له كتابًا بالأفرنجية في الفن الذي أتقنه ويوعن إليه بألاَّ يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية، ويأمر له بأسباب الراحة والمُعينات على الترجمة والتأليف .. فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد، وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بـ«لجنة الامتحان»، وبعد أن تنظر فيه تُرخِّص بطبعه في المطبعة الأميرية، ويغدق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويُشرع في ترقيته في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجندية أو البحرية، وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم مُوسعًا عليه في الرزق ليتخرج به أبناء مصر .. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الإنعام على المترجمين، ولكن ما يصدر عن المأمون – وهو أعلم خليفة في الإسلام – لا يُستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الأمة بقدر ما يُستكثر ما تم على يد «محمد علي» الأمي الألباني وعصره عصر شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب (أحد حسنات مصر الذي نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها «محمد علي» لمن يجيء بعده وشاهد تلك

الحركة العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدها الآن في تجددها): لقد ظلّت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير إلى سنة ١٨٨٢ فما بعدها، وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧، وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو «علي باشا مبارك» ناظر المعارف فسعى (وربما كان بدون قصد شيء منه) لإحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية زاعمًا بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم، وهذا لا يتأتّى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين، فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء إنجلترا، وقطعت الأرساليات العلمية إلى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر، وأخذت المعارف في عهد المبارك تُطهر المدارس بأمثال دنلوب وأرتين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى، حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة أكداسًا في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق إخوة يوسف ابن أبيهم، على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته..

قال غالب بك: كان أكثر أساتذة المدارس التي أُنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الأستاذ درسه بالفرنسية والمترجم معه ينقله إلى العربية فيُلقَى على الطلبة بلغتهم .. دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في

عهده يقول له في تقريره السنوي: إن الوقت قد حـان لأن تكـون وظـائف التدريس كلها بيد المصريين؛ إذ قد أصبح فيهم الأكفاء الآن، وإن مهمة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت.

نعم، في ذاك العهد تمَّ للعربية ما تريد من تعريـب المصـنفات العلميـة والأدبية على اختلاف أنواعها، وعادت فأضحت لغة بعد أن انقطع سند العلوم منها قرونًا، وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والشباسـي والهيهاوي والنحراوي وحماد وبهجت الفلكي وندى والنبراوي والبقلي ألفاظًـا من لغتنا كانت في حُكم الدارس هُجرت منذ كان العرب يُترجمـون وينقلـون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر، وأضافوا إلى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية المصطلحات الفنية وعرَّبوها على الطريقة التي سلك عليها أجدادنا المُعرِّبون غالبًا، حتى أن الأتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنـزا حاضرًا يُنتفع به في الحال مثل تلك المُعرَّبات المصرية الحديثة في الهندسة والطـب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وغيرها، فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدمجوها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوروبـا وتلامـذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن جملة لواء العلم، لا في القطر المصري فقط بل في البلاد العربية كافة، وأصبحت مصر – ببيض أياديهم – من هذه البلاد بمثابة باريس من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التي تُرجمت في فنون مختلفة من الإفرنجية زهـاء ألفـي

مجلد، والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألّف وترجم في عهده بما خلفه من قلمه أو عرّب في قلم الترجمة برئاسته وما بثّه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس، وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل، خلِّ عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك.

ورُبَّ معترض يقول: أي علاقة لتعلُّم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يُراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس إلاَّ؟ والجواب أنه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هذه المعارف، فكما أن للعلوم ارتباطًا كليًّا بعضها ببعض، هكذا للغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها، بل إن لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية أن لم تكن لغة علم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية، وهي أنَّا إذا تدبَّرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نُشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية، وشارلمان - كما لا يعزب عن علمكم - كان من أعظم ملوك دهره، ولة صلة بملوك المسلمين، وهو الذي أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولاً من قِبَله سنة ٨٠١م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المُقدَّس، وهذا الذي كان يحمي الملتجئين إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة، كان شارلمان أول أمره أميًا تعلم الكتابة البسيطة على كِبَر مثل محمد علي، إلاَّ أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروسًا فيه بالفطرة، فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم

على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشـــهور أســـتاذه وأمين سره وباذر الجراثيم الأولى من المعارف في هـــذه الأرض الفرنســـية، وبمساعيه أُنشئت المدارس في إكس لاشيل عاصـــمة الـــبلاد إذ ذاك، وتـــور وأورليان وليون، واستُنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حـــذو القذة بالقذة، وذلك أنه لَمَّا مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقليـــة فركـــدت ريحها جملة واحدة، لأن من خلفوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا علـــى قدمه ولا رُزقوا سعة عقله وصفاء طبعه، ولأن الأعمال العظيمة في الـــبلاد المُنحطَّة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالأفراد، وعلى العكس منها في البلاد الراقية، أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مـــات فـــي خلالهـــا التعليم أو كاد، ولم تدب روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلـــى يـــد أناس من أبنائها، كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة مُتَّكلة في مهمتها علـــى نفســـها لا علـــى الحكومة، وبذلك جاز لنا الاستنباط بأن كل إصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيـــد الحكومـــة (ولاســـيَّما فـــي الـــدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزًا بين الأمة والحكومـــة).. والحكومـــات قـــد تعرض لها عوارض تنسي معها الترغيب في العلم، ومنها إلـــى اليـــوم مـــن يفضل الجهل على العلم .. ولهذه المسألة نظائر كثيـــرة فـــي تـــاريخ الأمـــة العربية؛ فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها، وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكُهَّان، طول بلا طول ولا طائل، وجمل باردة سمجة، وشعر ركيك أكثره في الأماديح والأهاجي، وإن ارتقى الشاعر انفتق لسانه في وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال .. وما أظنكم - أعز الله بكم دولة الأدب - إلاَّ قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال محمد عبده وأحمد فارس وإبراهيم المويلحي وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الألوسي وجمال الدين القاسمي وحفني ناصف ويعقوب صروف وإبراهيم منصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم أمين وأحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويش وصالح حمدي حمّاد ولبيب البتانوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف وأحمد تيمور وزكي مغامز وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح أنطون وچورچي يني وإبراهيم النجار وأديب إسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل وأحمد فؤاد وسعيد أبو جمره ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وخير الدين التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الإنجليزي ونجيب شاهين وإسكندر شاهين وسعيد الباني ومحمد مسعود حافظ عوض وحسن حسني الطويراني وأحمد سمير وعبد الغني العريسي ورزق الله خسون ويوسف البستاني وأنطون جميل وعادل أرسلان ونسيب أرسلان وچورچي حدَّاد ورشيد عطية ونجيب طراد و يوسف

زخم وعبد الوهاب النجار وميشيل بيطار وخليل زينية ومحمد مصطفى وأحمد زكي ومصطفى لطفي المنفلوطي وأمين ظاهر خير الله وعيسى إسكندر المعلوف وديمتري قندلفت ويوسف الحازن وروحي الخالدي ومحيي الدين الخياط ومحمد المويلحي وخليل سعادة وداود بركات وبشارة زلزل وبولس زوين وعبد القادر المغربي وبدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد وعبد الكريم سلمان وأحمد الصابوني وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشباننا، وقام من الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وشكيب أرسلان وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وأمين الحداد وولي الدين يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القار ورزق حداد وغيرهم، ومن الخطباء جمال الدين الأفغاني وعبد الله نديم وإبراهيم الهلباوي وسعد زغلول وأحمد الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن شهبندر وأنيس سلوم وإسكندر العازار وفارس نمر ومحمد أبو شادي وأمين ريحاني ومحمد لطفي جمعة وأحمد لطفي السيد وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفي وأحمد لطفي وإبراهيم اللقاني وأحمد محمود وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الأخيرة، عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس أعمالاً، وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدّبون عليه وينسجون على منواله.

وبينما كانت اللغة العربية تزدهر في مصر في الإمارة العلوية عــزّ علــى الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة، فنشأت لهذه اللغة حيــاة جديدة في سوريا، لا بواسطة الحكومة كما في مصر، بل بواســطة الأفــراد والجمعيات، وذلك في أواسط القرن الماضي. وكانت مدينة بيروت – وهــي ثغر لبنان وسوريا – موطن تلك الشعلة، وقد جاءهــا أنــاس مــن مرســلي الفرنسيين والأمريكان وأنشئوا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية، وأتقنها كثيرون من أهل لبنان، فحُمِدَ مسعاهم، وكانت اليد الطولى في تنشــيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات، وهما مــن أعظــم مؤسسي الكلية الأمريكية الإنجيلية في بيروت تعلّما العربية، والأول أمريكــي والثاني أرمني، ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبيــة، ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعلــيم فــي الكلية اللغة الإنجليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة، ولمــا أخفقــا استقالا من وظيفتيهما لأنهما أبت مروءتهما إلا أن يمحضــا النصــح للــبلاد ولِلغتها .. ولدكتور كرنيليوس فانديك الأمريكاني في سوريا بفضله على اللغة العربية وما عرّب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعــة الطهطــاوي فــي مصر، ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أمريكي الجنس والمنشأ، غار على لغة العرب أكثر من أهلها .. ومن الغضاضة على مصر والشام أنهمــا لــم تعرفا لهما حقهما على ما يجب، وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثــالين كما رفعت باريس لهوجو وروسو، أو كما رفعت مصر لمحمد علي وإبراهيم .. والعلماء إن لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقــل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذاك الدور أيضًا بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه، وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم، فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرَّج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأمريكا، وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء .. ولم تحرم الآستانة – والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله – من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها قِبلة علمه ومثابة درسه وبحثه، وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح على صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه.

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية، خرج من بلاده مغاضبًا فقضي زمنًا طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنجلترا، وتعلَّم في خلال ذلك الإنجليزية والفرنسية، ثم دان بالإسلام وألَّف بعض الكتب ومنها «اللفيف في كل معنى طريف» طُبع في مالطة سنة ١٨٣٩، ومن كتبه في أوربا كتاب «الساق على الساق في ما هو الفارياق» أو «أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والإعجام» طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠هـ، وضمنه ترجمة حياته وشئونا وشجونًا على أسلوب يجمع بين الجد والفكاهة بحيث يمكن عده من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالأمروستيك (الجد في الهزل)، أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر، أو الناتور أليست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا، وإنك لتُدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير، فكأن اللغة التي كان من

جملة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس «الفيروز أبادي» الذي ألَّف كتابًا مُهمًّا في نقده وسمَّاه «الجاسوس على القاموس» كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتفنن ما شاء بيانه وتبيانه .. ولفظ «الفارياق» مقتطع من أول اسمه «فارس» وآخر اسم أسرته «الشدياق»، وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين جملة منكرة؛ لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلمًا وتعصبًا جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البروتستانتي.

هبط أحمد فارس مدينة الآستانة بعد أن خبر حال أوربا خبرة زائدة، وأنشأ جريدة «الجوائب» التي طارصيتها في الآفاق، ورُزق الحظوة بعلمه، فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنح، وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية، وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين، بل أشبه بأبي الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس إلى معالجة التأليف، وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسُّنة.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت، سارت جميع صحفنا التي أُسِّست بعدها على نسقها، وقل أن نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية – اللهم إلا أن تكون جريدة «العروة الوثقى» للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و«مصباح الشرق» لإبراهيم بك المويلحي و«البرهان» للشيخ حمزة فتح الله – وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فهيا مساعدون في الأقطار كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء في مشالي أفريقيا وغربي آسيا ووسطها، وهو الذي يتولَّى

النظر في كل ما يُنشر فيُنمّقه ويُزوّقه، وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية، فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية، وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره، ومن أراد أن يطّلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى «كنــز الرغائب في منتخبات الجوائب»، وهو مطبوع متداول، وإن أحب الاطلاع على «الجوائب» برمتهـا فـي حجمهـا ووضعها، فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والآستانة.

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب «ســر الليالي» ورحلة له إلى أوربا جدية محضة، وكتاب «نحو اللغة الإنجليزيــة»، وديوان شعره وغيرها، بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتـب «الثعالبي» و«التوحيدي» و«الطغرائي» و«البديع» وغيرهم من أئمــة الأدب نشرها على أحسن أسلوب راقٍ في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة، فعمّت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها في أسلوبها، وما برحت مطبوعــات الجوائب إلى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفــع بهـا الأحفاد والبنون على مر الدهور والقرون.

ابتُلي أحمد فارس بأناس حسدوه، وأي عالم خلا من حساد! وطفقوا يُشنعون عليه ويُزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه، ولكن تلك المناقشــات اللغويــة الأدبية بينه وبينهم - بل بين حزبه وحزبهم - لم تزد فارسنا إلا جرأة علــى الجري في مضماره وقبولاً بين العالمين بمصنفاته وآثاره، فكان بنقده بعــض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كُتّاب عصره من الفرنسيين، فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات - كما استفادوا بعد ممّا دار بين «التقــدم» و«المتقطف» و«البيان» و«الضياء» و«المشرق» وبذلك أخــذ مــن يعــانون

صناعة القلم يتأنون قليلا فيما يكتبونـــه، وأخـــذت تخـــف أغـــلاط الكـــاتبين والشاعرين، وتَسلَم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحا المؤلفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلُّف والتعسُّف حتى صـــحّ لنـــا أن نقول اليوم إن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الإفرنجية الراقيـــة بإيجازه واندماجه وتقطيعه، وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصـــرين وأفكارهم.

نعم، عادت اللغة العربية – ولاسيَّما في الثلاثين سنة الأخيرة – نضـــرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة، وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي أتانا به العماد الكاتب الاصفهاني في فارس – وفارس مـــورد بدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية، ومنهـــا الموســـيقى والعود المطرب – ونقله إلى العربية فأجاد في أكثره إلاّ أن من جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يُتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أُكثر من مطالعته واســـتظهاره أيـــام ولـــوعي بالأدب من «مقامات الحريري» و«رسائل الخوارزمي» و«رسائل الصـــابي» و«تاريخ اليميني» للعتبى و«مقامات الزمخشري» و«مقامـــات الأصـــفهاني» و«قلائد العقيان» وذيله «مطمح الأنفس» للفتح بن خاقان و«خطب ابن نباته» و«فاكهة الخلفاء» لابن عربشاه و«خزانة الأدب» لابن حجـــة و«الريحـــاني» للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقهـــا فـــي خلوتي وجلوتي، ولما كُتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية والتركية أنشأت أبحث عن كتب كُتبت بلا تكلُّف وتصنُّع – ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب

الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي.والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين - غدوت أعجب من نفسي: كيف أضاعت وقتها في تلقُّف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل «نهج البلاغة» و«البيان والتبيين» و«الذريعة» و«الإحياء» وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده، وهو في الحقيقة - ونفس الأمر - مادة أدب كما هو مادة علم لا تُبلَى على الدهر جدتها ولا تُخلق ديباجتها، كما كنت أعجب من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين، وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبي الطيب وأبي عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي أُلِّفت في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طَبعت لنا «المخصص» لابن سيده أحسن كتاب عُني بطبعه في شرقنا، ولما طبعته المطبعة الأميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس، كل هذه الأعمال أعانت العربية على تحسين آدابها وترقِّيها، ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الأوربيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز، وأولئك الذين أوقفوا أنفسهم منذ عشرات من السنين يُعربون لنا كل يوم في جرائدهم

ومجلاتهم أفكار الغربيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكوّنوا مجتمعنـا الأدبي على ما ترونه، وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أُقدم لكم مثالاً من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل «الجبان والجنة» في سوريا و«الفلاح والمحروسة» في مصر، وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً، وترجعوا إليها اليوم، وإن كانت إلـى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء، قابلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثالها منذ مائة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجًا صالحًا منه بنصه وفصه، عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسُن المحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للغة من نوعها ممَّا ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفًا صالحا منه يتجلّى لكم كيف ارتقت لغة القضاء، استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية، قابلوها بـأكثر مـا يحفظه خطباء الجوامع أو يقرعونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة، تدبروا لغة التمثيل اليوم – وإن كنا فيه دون سائر فـروع الآداب تـأخُّرًا – واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة، اقرءوا المحاضـرات التي تُتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخاليـة من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تُتلَـى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلاً تُدركون كيف وفّقنا الله إلى قيام بناء آدابنـا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس ممّا يُعد من نهوض اللغة ما نراه من إحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثًا تخرّجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق، أمّا من تمحّض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضًا مثالاً صغيرًا أذكره لكم دليلاً على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة، فقد شاهدت في وادي النيل بعض العُمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطُّف في التعبير مما لا تجده في كتبات العديدين من بعض الفقهاء والنحويين المتأخرين، وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تُلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصاحة العربية وشواردها، وتتفنن فيه من أساليب التعليم، نعم، إن مطالعةُ الجرائد والمجلاّت أعانت على انتشار الآداب وأدخلت الغيرة على التعليم في نفوس أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة، ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلّة انتشارها بينهم، مازال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلّمون بلغة سقيمة .. ومن هذه البلاد مراكش؛ فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة، ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فردًا يُعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت، وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة، ولأن

حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيين في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثّها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه؛ فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملَكَة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم، أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها، ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقُّف ملكة العربية، وأعني به «شنقيط» بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا، وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقّي والاستظهار، وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم، وأظن من يُحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أمّا سوريا فقد كاد ينحصر الفضل في إحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن، وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب، وداخلية ولاية سوريا ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق، إلاَّ أن ذلك لم يحُل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية، ونعني بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألّفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الأفكار الذي دام في البلاد العثمانية إلى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨.. ولذلك لا نغالي إذا قلنا إن ثلاثة أرباع ما تمّ للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر، والرُّبع الآخر يُوزع على سوريا والعراق وتونس، ومن الأسف أنّنا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية، ولكن

القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية، فتسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع ما نسأل الله معه السلامة، وأقل من ذلك غلَطًا تلك الجرائد التي صدرت مُؤخرًا في طرابلس الغرب وبعض مدن سوريا الصغرى وبغداد والبصرة والموصل، وأحسن منها جرائد مهاجري سوريا في أمريكا الشمالية والجنوبية، وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق، ومع هذا فإن الآمال قويت بألاّ ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة إلاّ وتكون ملكه الآداب عمت البلاد التي ينطق فيها بالضاد، بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء، ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصًا في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها، وأريد بها الحجاز واليمن ونجد، فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا تهيأت لهم الأسباب لأتى على أيديهم خير كثير للأمة، ولا يُرجى ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الأقطار، وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرّغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة.

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة، ألقيته في هذه المحاضرة، وربما خرجت عن البحث بعض الشيء، وساحة عفوكم تسعني وأنتم تعلمون أني على أوفاز .. أستودعكم الله والسلام عليكم.

كلية باريس

١٨

كلية باريس من أقدم كليات العالم في التاريخ، إن لم تكن أول كلية أُنشئت، وقد كانت في القرون الوسطى - بلا مراء - أشهر كليــة وأكثرهــا إيــواءً للطلبة، فكان علماء الوقت - كما قال أحد الفضلاء - ينظرون إليهــا بأنهــا صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت إرثًا شرعيًّا صحيحًا، وكانــت أول كلية أُنشئت في العالم كلية «بابل» أسَّسها نينوس مؤسس نينوى والمملكة الآشورية الأولى، وخلفتها كلية «ممفيس» المصرية، وخلفت كلية ممفيس كلية «أثينا»، وبعد هذه أُنشئت كلية «روما»، وبعــدها قامــت كليــة «بــاريز»، واشتهرت كلية «بولونيا» في تعليم الحقوق، كما سبقت كلية باريس غيرها في الآداب المقدسة والعالمية، وكان في جوارها عشر مدارس تُحيط بها كأنها أم القرى، وتلك من أعمالها مثل مدرسة الإنجليز ومدرسة الأيكوسيين والألمانيين واللومبارديين واليونانيين، ولطالما بعث الملوك إليها بأولادهم ليتخرَّجوا فــي المنطق ويتعلَّموا رقَّة الجانب وحُسن الأدب والعشرة.

ظلَّت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشــر تُربِّــي معظم الرِّجال الذين يختلفون إلى التعليم فيهــا، وفــيهم الشــعراء والعلمــاء والفلاسفة، ومن مشاهير من تخرجوا فيها «غليوم أوام» و«رايمــون لــول» و«توما داكين» و«بنوا داناني» و«بونيفاس الثــامن» و«برونوتــو لاتينــي» و«دانتي» و«أتوما موروس» و«إيراسم» وغيرهم وجميع طلابهــم - علــى اختلاف أصقاعهم - كانوا يرتاحون في حِماها، وكان مطمح أنظارهم حــب الحقيقة وهي القاعدة الأصلية فيها .. وكل منهم يتمتع بحقوقه، ولقد جاء زمن

كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس، إلاَّ أن كلية «باريز» أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الأفكار الفرنسية، وكانت وحدها تكفي لإنارة العالم إلاَّ قليلاً، وكان رجال تلك الأزمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويُرجعون الأمور إلى مصادرها، فيقولون إن روما مقر البابوية وألمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم.

وكانت الأفكار الفرنسية – كما قال أحدهم في المجلة الباريسية – هي أكبر معين في القرون الوسطى عضَّد إلى النهاية الصليبيين في نشـــاطهم، وهيَّـــأ أسباب الحماسة الدينية وفتح لأمم المغرب ونشاطهم طرقًا جديدة في العمـــل، ومن الأفكار الفرنسية نشأت بعد نـــزاع قديم فكرة الوطنية مُتجلية في صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء، بحيث خضعت السياسة لسطانها، ووضعت أُســـس الوحدة الوطنية والأفكار الفرنسية هي التي طهَّرت رياح الإصلاح والنهضة، وقادت الأفكار القديمة إلى التجديد، وأنارت العالم بقبس أنوارها .. والأفكـــار الفرنسية هي التي حملت إلى العالم في عهد ڤولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الديني والعدل الاجتماعي والحق والإنسانية، والفكر الفرنسي هو الـــذي ســـنَّ المبادئ الخالدة في دساتير الأمم المتمدنة بأسرها، فمن فرنسا نشـــأت حريـــة البلچيك وحرية اليونان وحرية إيطاليا وحرية العثمانية، وفرنسا مهـــد الأدب تنشر أنواره فتتناوله الأجانب وتتقبَّله بقبول حسن، وهي البلاد التي اشـــتهرت بعلمائها وصناعها.

ومن كلية باريس اخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اختُرِع التلغراف اللاسلكي والسلكي والتليفون، ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية، وفي كلية باريس أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المُحسن إلـــى

الإنسانية في العالم أجمع، وفي كلية باريس حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة، وفي كلية بأريس اخترع كوري وقرينته الراديوم واهتزت في أيديهما ذرّاته، وفي معامل كلية باريس أوقد مواسان للمرة الأولى التنور الكهربائي، كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالألوان.

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم القرون الوسطى، فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية، بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم – ولاسيَّما أمريكا الجنوبية وبوهميا و البلاد المصرية والعثمانية – وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحي والإخاء العام، ولكم كان أساتذتها يسيحون في بث ما علّمهم الله في البلاد التي يقل فيها العالمون، ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم، ولكم رنت في غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون إليها نتائج أبحاثهم ودروسهم .. فإن كانت كلية باريس أم كليات براغ والآستانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأمريكا اللاتينية فهي تُفاخر بأنها أم كليات إنجلترا وإيكوسيا.

ويؤخذ من إحصاء سنة ١٩٠٧ – ١٩٠٨ أنه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الأجانب فتيان وفتيات، ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق، و ٥٢٠ يدرسون الطب، و ٧٧٣ العلوم، و١٠٦٢ الآداب.

ولم تُقصر كليات الولايات – وعددها اثنان وعشرون كلية – في بث روح التكافل الأخلاقي والعقلي، فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب

الفرنسيين في إسبانيا، وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الإسبانية العالية في مدريد، وأنشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسا، وكلية نانسي - وهي على الحدود الألمانية - تُعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم، وهكذا الحال في كلية مونبيليه وليل وليون، فكليات فرنسا تُعلم في السنة سبعة آلاف طالب، وهو عدد ليس بقليل يدل على تفرّدها في هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية.

هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريس التي مازالت الحكومة الفرنسية تنفق عليها النفقات الطائلة، والمحسنون لا ينفكون عن إعطائها المنائح الكبيرة، فقد وهبها كارنجي المحسن الأمريكي كثيرًا، كما أن بعض الروسيين منحوها مالاً جزيلاً، والفرنسيين يعطونها عن سعة، فحيًّا الله يومًا تُقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تُدرس لأبنائها علوم البشر بلغتهم، وتكوّن مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب كالبلچيك وهولاندا والدنمارك والسويد والنروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتغال.

حدائق باريس ومتاحفها

١٩

يطول بنا نفس الكلام إذا أردنا الإفاضة في كل فرع من فـروع العمـران بباريز كلها مما يحتاج إلى صفات كبيرة، وربما ملّ القـارئ قبـل أن يمـل الكاتب، ولقد عنيت مدة مقامي في هذه العاصمة ألاّ أضيع ساعة من وقتي إلاّ في البحث عن جمعية أو إنسان، وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقـول ووفرة العلم وحذق الأيدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية، ومما جعلته لأوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسَّماع.

في باريس حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحي أو شارع صغير ويسمونها «سكوار»، وهي كلمة إنجليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يُحيط بها حاجز من قضبان حديد، وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنّـى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقـط بانتظامها وحسن تعهدها، أمَّا الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف فـي كـل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصَّتها به يد الصانع وأيدي البشـر من مجالي الظرف والجمال.

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة النباتات وحديقـة كلـوني وحديقـة لوكسومبورج، وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرَّات لـم لا يكـون عارفًـا بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة؟ فمثل هذه الحدائق التي يتنـزه فيها المتنـزهون هي في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنـزه – كبيرًا كان أو صغيرًا – ما ينبغي له من هذه العلوم درسًا عمليًّا لا يحتـاج

فيه إلاَّ إلى انتباه فكر قليل، حتى إذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مُطبِّق العلم على العمل.

ولقد رأيت في حديقتي الحيوان والنبات أشياء كنت اقرأها ولا أعرف عيانها، فلما وقع النظر عليها تبيَّنت فضل عرضها، وإن العلم النظري إذا لم يشفعه علم عملي يبقَى كالسيف في غمده أو البندقية في معملها أو الكهرباء قبل توليدها، وليس في البلاد العثمانية أو المصرية ما يُشبه هذه الحدائق .. اللهم إلاَّ أن تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر، وحديقة الأمة وغيرها في الآستانة .. ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لأنفسهم وينظمه الإنجليز أو الطليان والنمساويون لنا؟ وما حكَّ جسمك مثل ظفرك.

وإنك لترى في بعض الحدائق تماثيل مشاهير رجال فرنسا في السياسة والعلم مُجسَّمة من رخام مُجزَّع أو حديد مُصنَّع، كأن ساحات باريس وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا إلى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمنًا، وأصبح لهم في تاريخها ذكر يُردَّد، ففي ساحات باريس وشوارعها ٦٨ مشهدًا Monument لمشاهير علمائهم ورجال سياستهم، ومنهم أوجست كونت، وألفريد دي موسيه وشاركو و كورنيل ودانتون وجامبتاوي دي موباسان وجول سيمون ولافييت وواشنطون ولافوازية وباستور وڤيكتور هوجو وغيرهم، وفيها ٦٨ تمثالاً: اثنان منها لإسكندر دوماس الابن والأب، وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلود برنار وكوندورسه ودانت وديدور

وغاريبالدي وجورج ساند وچان چاك روسو وچان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشيكسبير وڤولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية.

هذا داخل العاصمة، أمَّا خارجها فلها من غابتي فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة، وغابة فنسين في شرقي باريس على بضعة كيلومترات من نقطة دائرتها، ومساحتها ٩٢٧ هكتارًا، وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب .. وأعجب منها غابة بولونيا في غربي باريس ومساحتها ٨٧٣ هكتارات، زرتها ثلاث مرات .. وإن كانت في الشتاء ليست مثلها في الصيف، على أنها ما خلت من الأنيس والجليس .. وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء صافية والشمس ساطعة والهواء نقي..

وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدري كيف يصوره الشاعر إذا كان الوقت ربيعًا أو صيفًا أو خريفًا، ولو كنت شاعرًا لحبَّرت في وصفه القصيد، وإن زرتها في الفصل «الميت» كما يقول الفرنسيين.

أمَّا المتاحف الباريسية فهي أيضًا قصور نزهة وحدائق غنَّاء وعددها ٣١ متحفًا، يحتوي كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر في الصناعات والفنون على اختلاف العصور، زرت بعضها وقضيت أوقاتا طويلة في متحف اللوڤر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف ڤرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريس .. أما متحف اللوڤر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها، عُرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أوغسطس، ومازالت أيدي الملوك تتعاوره بالإصلاح أو التدمير .. حتى إذا كان عهد فرنسيس الأول أصبح اللوڤر متحفًا يُقسَّم اليوم إلى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها: وهي: متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف

النقش ومتحف النحت القديم ومتحف العاديات الآسيوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الأفريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والأواني الخزفية القديمة ومتحف القلز والحلي والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الأقصى..

وكل متحف تُصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفي النظر فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين، وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك إذ تتمثل لك عظمة الإنسان وتفنُّنه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه.

أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال، وكانت في القرن الحادي عشر للميلاد قرية فأصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لأنه أقام فيها قصرًا للراحة أثناء الصيد، وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا، فأنشأ فيها أبنية ومصانع عظيمة، وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفًا على عهد الثورة، وهكذا إذا أراد الملوك أن يُعمِّروا بلدًا أحيوه وإذا شاءوا أن يخربوه أماتوه، واشتغل في إقامة قصر فرسال الذي جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة، وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي.

أمَّا مجموعة الصور البديعة التي فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير في العالم، ومن يُمعن النظر فيها كثيرًا يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر.

ومن جملة ما حواه ساحة بيوت الشرف التي اشترك فرد أو أفراد منها في الحروب الصليبية – ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ إلى لويز فيليب صاحب فرنسا – وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عيانًا، وفيه صورة تُمثل القائد كليبر الفرنسي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسي لمصر.

أطلت الروية في كل هذا، وأنعمت النظر في النفقات الطائلة التي أُنفقت على هذه القصور المزخرفة والمصانع، فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسية يريدون إنزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتُنقل إلى أيدي الأمة .. نعم، إن اقل نظرة إلى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل، ولكن الحوادث كالحبالى لا تلد إلا بعد إتمام مدة الحمل، أو كالثمر لا ينضج قبل أوانه.

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة، ولكني على الجملة أخذت منها صورة إجمالية كافية، شأني في كل ما زرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسَّر لي أن أُلقي عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يُدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة.

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب، وهم يرون مئات الفدادين من الأرض تُجعل حدائق قد لا يختلف إليها إلاَّ أفراد، في حين يُهلك مئات الألوف من المحتاجين

الفقراء دون أن يجدوا من يرحم ضعفهم المادي والصحي، أو يرثي لبكائهم .. وتسبل على النظر هذه التحف والعاديات التـي لا تُقـدَّر بـثمن، وحكومـة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز فـي ميزانيتهـا، وهكذا نظام المجتمع الغربي، ولعلَّ عقول أهله المفكرة تُحرِّر فـي الأجيـال المقبلة الفقير من فقره، أو تقول على الأقل على تعديل هذا النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حدائقة وساحاته الوالد والوالدة والولد.

مكاتب باريس ومكتباتها

٢٠

لولم يكن في باريس إلا مكتبة الأمة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومائة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف صورة مختومة وألوفًا من الأيقونات والأنواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات؛ لكفاها جالبًا للسائحين ولافتًا لأنظار أهل العاملين من العالمين.

مكتبة أُسِّست منذ نحو ستة قرون، وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون في أن يجعلوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات، حتى إذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الأمة أكبر مكتبات العالم وأهمها بنُدرة كتبها ومخطوطاتها، ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف.

اختلفت إليها غير ما مرَّة، ولم أتمكَّن من مطالعة كل ما أُريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة، وبلغني أن الكتب التي أُهديت إلى مكتبة الأمة في العهد الأخير لم يتيسَّر إدخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة، وكادت مطبعة الأمة الأميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن، ولا غرو فإن ما رأيته منها مطبوعًا إلى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسه، ويقضي فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الإجمالي.

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الأمة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسَّر له أن يأتي إلا على قسم ضئيل جدًّا مما حوته في بطنها

من معارف البشر، ولا تُعَد المكتبة الخديوية في مصر ومكتبات الآستانة التي تتجاوز الأربعين مكتبة، ومكتبة المجلس البلدي في الإسكندرية، ومكتبات دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الأدنى إذا جُمِعَت كلها في صعيد واحد وجُعِلَ لها فهارس وقوائم منظمة إلاَّ جزءًا صغيرًا من ذاك الجسم الكبير، وعلى تلك النسبة قِس المطالعين والمراجعين في مكتبة الأمة بالنسبة لأمثالهم في البلاد العثمانية والمصرية، فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالاً ونساءً، شيوخًا وعجائز، شبانًا وشابات، كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة - وربما جاوزوا الألف أحيانًا - وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأمريكا وأفريقيا ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة، وكلهم يتنافسون في البحث والدرس، ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقودًا ثمينة وتعاويذ مُحلاَّة تقي البشر شر الجهل والخُرافة.

ولعلَّه يخطر ببال بعضهم أن هذه المكتبة هي كل ما في فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيون فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الأرض كُلَّ غالٍ ونفيس على عادة الإفرنج في التغالي بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع، ولكن في باريس وحدها من المكتبات العامة ما لو جُمع أيضًا لكان منه مكتبة كمكتبة الأمة بكثرة أسفارها، إلاَّ أن هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات.

ولباريز عشر مكتبات أخرى، في كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات .. دع عنك خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع، فإن لكل واحدة منها ما يقتضي للمطالع من أسفار المراجعة

وغيرها، أمَّا خزائن كتب الأفراد فهذه لا يُحيط بها إلاَّ علاَّم الغيوب أو من يدَّعي أنه يعرف ما حوت باريس من علم وأدب وذهب ونشب.

ويقول العارفون إن قواعد بلاد الإنجليز السكسونيين ألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة تُحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتيني، كالفرنسيين والطليان والأسبان وغيرهم؛ إذ ثبت أن تلك الأمم العظمى الراقية أكثر إحساسًا للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسيين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شئونهم على تقاليد لهم قديمة، وإن عُرِف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى التجديد، ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى.

والانتفاع من الكتب أيضًا لم يخرج عن هذا النظام، حتى قالوا إن نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيين لو نُقلت إلى ليبسيك أو ميونيخ أو برلين أو ڤينا أو أكسفورد أو مانشستر أو لندن أو نيويورك أو شيكاغو لانتفع بها وتيسَّر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك مُفهرَسَة مُبوَّبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى، وقد جُعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول خالٍ من القيود التي تُقيِّد المُطالِع والمُراجِع، فإن كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة – ولاسيَّما في الأمور الذوقية وبدائع الصناعات والإصلاحات الدستورية والإنسانية – فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع؛ فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري.

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب؛ فإنا نجد ألمانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنُّن الفرنسيين فيما يدل على سلامة الذوق، حتى أن ليبسيك في ألمانيا

تبيع وحدها من الكتب قدر ما تُصدِّر فرنسا كلها، ومن الغريب أن الكُتَّاب الألمان في باريس نفسها تجدهم أمهر في تصريف كتبهم، فيبيعون كمية أوفر من الكتاب الباريزيين.

جاء في كتاب «ألمانيا الحديثة» أن ألمانيا أعظم البلاد إصدارًا للكتب؛ فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تُخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب، فأصدرت سنة ١٩٠٥، ٢٨٨٨٦ كتابًا .. في حين أن فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تُصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتابًا، فإذا قُدِّر أنه يُطبَع من كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيُصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد واحد، فصناعة الكتب في ألمانيا رابحة جدًّا، وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥، ٧١٥٢ محلاً تُصدِّر إلى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك.

زرت في جملة الكُتَّاب الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة «هاشيت» المشهورة في جادة «سان جرمان»، وهي ثلاثة طوابق، وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم، ويُطبَع فيها بضع جرائد ومجلاّت، كما تَطبع الكتب المدرسية والأدبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم .. وهي مؤسَّسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن، ويُعَد هاشيت من أعظم كُتَّاب العالم إن لم يكن أعظمهم، ومع هذا يقول العارفون إن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الألمان أو الأمريكان لأدهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم، فكأن دم الفرنسيين الذي غلي زمنا قد برد اليوم، وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيُدهش بحرارته، ومن مكتبات باريس المشهورة مكتبة «فلاماريون»، ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريس وبلاد فرنسا، هذه المكتبة فيما رأيت اقرب إلى التجديد منها إلى الجمود على القديم.

مجامع باريس العلمية

٢١

على الشاطئ الأيسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخيم قام قصر عظيم عُمِّر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك – على عادة عُظماء القرون الوسطى – وأراد أن تُنفَق بعده في الخيرات وحُسن الأثر، ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنويًّا ليكون منه مدرسة عالية يتعلَّم فيها ستون طالبًا من أبناء الولايات الأربع التي أُضيفت إلى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون.

وهذا القصر هو الذي نُقل إليه مجمع فرنسا العلمي سنة ١٨٠٦، ذاك المجمع الذي أُسِّس سنة ١٧٩٥، فكان مفخرًا من مفاخر الفرنسيين، وحُقَّ لهم أن يفاخروا به، وهو مجلس أو ديوان مؤلَّف من خمسة مجامع: فالأول المجمع العلمي الفرنسي المعروف بالأكاديمي أسسه ريشليو سنة ١٩٣٥، وهو يشتغل خاصة بتأليف مُعجم اللغة الفرنسية وإدخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة أو إصلاحها، وأعضاؤه أربعون رجلاً، ويُقال لهم «المخلَّدون» على سبيل الدعابة؛ لأنهم إذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء في الحال من يخلفه ..

والمجمع الثاني مجمع الصناعات النفيسة، أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم «مجمع التصوير والنقش» .. والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب، أنشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ .. ومجمع العلوم أسسه كولبر أيضًا سنة ١٦٦٦ ..

ومجمع العلوم الأخلاقية والسياسية أُنشئ سنة ١٨٣٢ .. وجميع هذه المجامع يَنتخب أعضاؤها بعضهم بعضًا مدى العمر، وينظرون في العلوم الآنِف بيانها، ويُعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين، وبعضها لا يستهان به .. وفي باريس مجامع علمية كثيرة غير هذه، منها مجمع باستور العلمي مُكتشف الميكروب، والمجمع الكيماوي، ومجمع فتيان العميان، ومجمع الزراعة، ومجمع البحار، ومجمع العيون، ومجمع الصم والبكم .. ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها، وأكتفي فقط بوصف جلسة عامة حضرتها من جلسات مجمع العلوم الأخلاقية والسياسية.

في اليوم الرابع من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع (وهي القبة التي تجتمع فيها المجامع الخمسة المذكورة فيما تقدَّم) وقُدِّرَ الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء، جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع، بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى، وكان أكثر أعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي، فجلس على كرسي الرئاسة الميسو رني ستورم، وتلا – كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ إنشائه – قائمة بأعمال المجمع منذ اثني عشر شهرًا، وصفَّق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألَّفوها وأعمال قاموا بها لخدمة الإنسانية وتعليم البائسات وإطعام الجائعات واليتامى والعميان، وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من أثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالأم أرنستين التي أنشأت في باريس ملجأ سمَّته «معمل الجهاز»، والآنسة دي رشمون التي أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوي إليه أربعمائة ابنة من بنات العُمال، وأنفقت عليه ثروتها، ومن المعاهد التي أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد «كارنو»

وهو الذي منحته العقيلة كارنو امرأة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يـأتي بثمانية عشر ألف فرنك دخلاً سنويًا، وقضت بأن تُقسَّم إلى ٩٠ إعانـة، كـل واحدة بمائتي فرنك تُوزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران (يونيو) - وهو يوم مقتل كارنو - على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد .. ومـن جملـة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الإجادة لمن ألف كتاب «أفريقيـا للأوربيين» وكتاب «أوربا والمملكة العثمانية»، ثم قرأ المسيو دي نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسلفه في هذه الوظيفة چورچ بيكـو فأثَّر في السامعين وأبكاهم، وتفنَّن ما شاء وشاء البيان في وصـف حسـنات المتوفي واقتداره، وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ في الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العالمون العاملون طربهم بنغمات الأوتار وتغريد الأطيار في الأسحار.

وهكذا انصرف القوم - ونصفهم من النساء - يرددون محامـد أعضـاء المجمع .. أمَّا أنا فتمثَّلت لي أرواح أولئك العلمـاء العـاملين الـذين سـنُّوا لمعاصرينا أخلافهم سُنن الارتقاء وخدمة العلـم والحـق والفضـيلة والآداب والفنون، وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت: هل يُكتب لها فـي المسـتقبل مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين؟ أو نظل كمـا نحـن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين، ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شـدتنا ومثالنا في نهضتنا، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون.

كنائس باريس ومعابدها

٢٢

من المعاهد التي يُقضَى على من يزور باريس أن يختلف إليها ولو مــرَّة بيعها وكنائسها، فأنها من الأماكن التي يقرأ فيها نموذجًا من نماذج البناء فــي القرون الوسطى، ويطّلع فيها على فلسفة الفرنســيين الروحيــة، خصوصًــا والمأثور عنهم في الشرق أنهم أمة لا تُقيم لغير العقل وزنًــا، تجــرَّدت مــن العواطف الدينية حتى لم يبقَ فيها سوى العجائز من النساء يختلفن إلى المعابد للإنابة إلى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام.

بيد أن من تعمَّق في البحث عن حال الفرنسيين الروحيــة يتجلَّــى لــه أنَّ جمهورًا عظيمًا لم يبرح مُتشبثًا بدينه متشبعًا بصحة يقينه، ولاسيَّما في القُرى والبلدان الصغرى، فأغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نــزعوا كــل نِحلــة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة دينًا، واغلب الطبقة الوسطى يغلب عليهــا التدين .. أمَّا العامة في المدن فكالسائمة؛ لا تعرف غير الأكل والشرب واللهو واللذائذ، وأكثر أهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم، والسواد الأعظم من النساء متدينات، وتساوى متدينهم والمُنحل من كل ديــن مــنهم أو الخاصــة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية، ولا تختل هذه القاعدة قلــيلاً إلاَّ في المدن والحواضر، ولا أثر للتعليم الديني في المدارس الأميرية، وهو على أشده في مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة، على أن نــــزعة التعصب التي عُرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية في القرن الثالث للمسيح ما برحت لها في نفوس أبنائها حتى فــي هــذا القــرن العشرين آثار راسخة، وإن عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير ما

مرة، ودمَّرت بيوت الرهبان والنسك، وجردت الكنائس والبيــع والمــدارس الأكليركية من كل ما يدخل في حوزتــها.

يحتفل الفرنسيون يوم ١٤ تموز (يوليو) بعيد الجمهورية احتفالاً يقدســونه ويمجدونه، وفي ذاك اليوم تشهد في كل أرض فيها بضعة منهم أو زُفِع لهـم فيها علم نموذجًا من وطنيتهم، وكيف يري جمهورهم بالجمهورية حياته، ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليـوم، وأعيادهـا كثيرة هي صورة من صورتها في القرون الوسطى، بل في القرون الحديثـة قبل أن تنادي فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علنًا نـزعها ربقة الدين.

نعم، إن زائر كنائس باريس تتجلًى له فلسفة القوم النفسية، ومما زرته من كنائس باريس كنيسة نوتردام والمادلين، وعدد الكنائس الباريسـية سـبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك، ما عدا بيع الروم والبروتسـتانت ومعابـد اليهـود الأربعة، وما عدا المصليات والبيع الصغرى، ونـوتردام هـي مـن أعظـم الكنائس، وهي أجمل نماذج البنايات القديمة، تجيء بمكانتها بعد كنيسة مـدن شارتر وريمس وأمين وبورج، وتفوقها بآثارها التاريخية .. وكفى بأنها أنشئت في أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ولم تزل تتعاورهـا الأيـدي بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا، وفيها من بدائع مـا صنعت الأيدي وتفننت فيه العقول ما يُدهش ويُبهر.

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقي عثمان غالب بـك، ووقفنـا نسـتمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء، يعظهن واصفًا لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة، ومنهن من تُغرَورق عيناها بالدموع أو تجهش بالبكاء، خصوصًا عندما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريس، فهو داخل

الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس إلى الزهادة ويُحبِّب إليهم العبـادة، ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شئون وأعمال دنيوية هائلة، كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية.

إنَّ ما رأيته من انتظام البيع الباريسية وتفنُّن البنَّائين في إبداعها وتفـانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله على أن مدينة القرون الوسطى قامت باسم الدين، ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلـك القـرون، وكـان أكثرها إلى الزوال لو لم تُتَدارك في القرون الحديثة ببلسم من إنارة العقـول بالفلسفة والعلم المادي، أما مدينة هذا العصر فلا أدل عليها إلا بما ينفع الناس في دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافئ والمعامل والتكنـات والمستشفيات والمـدارس والكليـات ودور البائسـين والحقـول النموذجيـة والمتاحف والمكاتب ودور التمثيل، فهل يأتي على البشر عصر يكون فيه مـا ينم عن مدنيَّتهم غير ما ذكرنا قديمًا في الدين واليوم في الدنيا، ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتًا تعظيم ما خلفته عصـور التـدين مـن المصانع والعبادات التي انتقلت إلى أكثـرهم بالعـادة، أو يمزجـون القـديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم، هـذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالإجابة عنها .. والله أعلم بمصير عباده.

❁❁❁❁❁

قصور باريس وسراياتها

٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة: مصرف فرنسا وقصر الإليزيه، حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الأنفاليد والتويليري وقصر العدليه وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكي، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء، وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدي.

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الأخيرة، فقد كُتبت لي زيارة مجلس نواب الأمة الفرنسية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين فلم أُسَر بمشهد أجمل ولا أفخم، وقلّما تمثّل لي معنى النيابة عن الأمة إلاّ ذاك اليوم، ومجلسا النواب والأعيان هما مفخر من مفاخر هذه الأمة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية؛ ففي مجلس الأمة الحركة والمضاء، وفي مجلس الشيوخ التؤدّة والروية، فالأول يقيم في قصر البوربون والثاني في قصر اللوكسمبورج، وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة في هذه العاصمة العظيمة، وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم هِمّة الشباب، وعدد الأعيان ثلاثمائة تقرأ في وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة.

ولا أنسى يوم كانت المناقشة في مجلس النواب في وضع ضريبة على العُمال، وقد تدفّقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم إلا الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والسياسي والإداري.

وإن ما تُلي في تلك الجلسة فقط من الخُطب وجرى الحوار فيه بين الأعضاء لو جُمِعَ في كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعي اقتصادي

عن فرنسا، ومن أراد أن يعرف ما هو البيان الحقيقي والعلم الذي تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسي في فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سرّ الشورى.

أما المجلس البلدي فهو معيار العمران، وبيده إسعاد باريس وإشقاؤها، يُزار كما تُزار أكثر المعاهد الكبرى في باريس بطلب من الزائر يقدمه إلى أمين سر المعهد فيرسل هذا إليه ورقة يُعيّن له فيها الميعاد الذي يأتي فيه.

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسّم في نظره الذوق الفرنسي وعظمة هذه الأمة لكثرة ما يقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف، وكلها مزدانة بنقوش وصور ورسوم من أجمل ما خطته أنامل النقاشين والمصورين، وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والإشارات الحسنة.

فمن رسم يُمثل الغناء والعشرة، وآخر يُمثل الزهور والثمار، وغيره يُصور أغاني شواطئ السين، وآخر يُمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية، ومناظر كثيرة لأجمل قصور باريس ومعاهدها وأصقاعها .. وهناك صور رُسمت على الحيطان والأسقف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريس في العادة من يزروها من ملوك الأرض وأمرائها، ومنها ما يُمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم، وغيرها يُريك الطبيعة الملهمة المربية، فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية، وآخر يُمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم، وفيها ما يمثل السماء في باريس والخيال والولادة فيها، والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة، وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريس، وبعضها يُمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى والنقش والهندسة،

ومنها رمز القصائد الغنائية والأنغام والكدر والتأمل .. ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالإيماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والألعاب، ومنها ما يُصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب، ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور..

ومدينة باريس تدعو العالم إلى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من عصور التاريخ، وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل «الفلاندر» و«بيكارديا» و«الجزائر» و«ليون» و«لانكدوك» و«جاسكونيا» و«البروفانس» و«كوسين» و«بري» و«شامبانيا» و«برتانيا» و«بورجونيا» و«أوفرن» و«اللورين» و«نورماندیا» و«كونتيه نيس»..

ومن صورها ما يُمثل الصيف، ومنها الشتاء، ومنها ما يمثل آسيا وأوربا وأمريكا وأفريقيا، ومنها ما يُصور تأليه العلوم - وهو رمز لعلم الأحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيده - وأربع أيقونات تُمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وأمبر وكوفيه ولافوازيه، ومنها رمز إلى ساعات الليل والنهار ومشاهد الأفراح والأعياد.

وفي ردهة الآداب صور ترسم لك عرائس الشعر والإلهام والتفكر وتاريخ الكتابة وأعظم الأعمال الأدبية، وأربع أيقونات لأربعة أدباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوجو وميشله، ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ، وهناك رمز بديع يُشير إلى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تُحرِّر الأفكار من قيودها .. وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان نائمان وهما يُمثلان الأدب.

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يُمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم، وغير واحدة من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تُشير كل واحدة منها إلى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد، وكلها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن في العالم - ولاسيَّما من أهل فرنسا - جُعلت هناك نموذجًا مما خصُّوا به من المزايا وسعة العلم وبُعد النظر وحُسن الذوق.

وعلى الجملة فإن الشرقي الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريس تصغر بلاده في عينه ويكاد ييئس من ارتقائها ونهضة أبنائها.

أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين، فلا أقول فيها إلاَّ أنها عظيمة جدًّا، ويكفي أن المجلس طلب من الحكومة هذه الأيام أن تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليُطهِّر بعض أحياء باريس فأذنت له لأنه ثَبُتَ أن بعض الأمراض تَكثُر في حي دون آخر، فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها .. أمَّا أنا فلم أرَ على كثرة تجوالي راكبًا وماشيًا في شوارع باريس وأحيائها موضعًا تُحدثك النفس أنه محتاج للإصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء في مكانه، وأن مدينة باريس تُنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي يُنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة .. فتأمل.

٢٤

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريس، وها نحن أولاء نتوخَّى في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها، وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة، معتمدين فيما ننقل على معجم «لاروس» الجديد، وما هذه النبذة إلا احتذاءً لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرُّف كثير وزيادات.

فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية، يحدها المحيط الاطلانطي وبحر الشمال أو المانش من الغرب، ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط، ومن الشرق جبال الألب والجورا والفوسج، ويفصل بينها وبين البلچيك وألمانيا خط اتُّفق عليه من الشمال الشرقي والشمال، ومجموع مساحتها ٥٣٦,٤٠٨ كيلومترات مربعة، وسكانها نحو أربعين مليونًا، أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سوريا .. ومساحة سوريا ١١٥,٠٠٠ كيلومتر مربع.

والفرنسيون – كجميع سكان أوربا – أخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذي قوة عقلية حقيقية، واختلفت صفاتهم وميولهم لمذاهب المعاش، وأن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجمها، ومع هذا فهي تُعد من أغنى البلاد، وزراعتها أرقى زراعة في الأرض، ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والأنتيموان والكبريت، ولكن عندها ما يلزمها من الحديد والفحم الحجري.

وإنك لتدهش إذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءًا من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج، ولها في تربية المواشي والحيوانات يد طولى، وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول، وقد امتاز كل إقليم بصناعة .. وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لأنها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات.

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان، وفيها صناعات اشتُهرت شهرة الشمس والقمر، كما امتاز إقليم «الآردن» بالجوخ وأعمال الحديد والألواح الحجرية، وامتاز إقليما «شامبانيا» و«نوزمانديا» بالجوخ وأعمال الحياكة والنسيج، وإقليم «فرانش كونتيه» بعمل الساعات، و«ليون» و«سان أتين» بالمنسوجات الحريرية، وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل، وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني، وفي ضواحي «أنكولم» على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق، ولمارسيليا الميزة بصابونها، ولإقليم «البروفانس» بزهوره العطرة التي تُستعمل في الطيب .. وعلى الجملة: فإن صناعات فرنسا من أنفس ما تصنع الأيدي في العالم – ولاسيَّما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجواهر والبلور والأواني الصينية الدقيقة – مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوربا.

تُقسَّم فرنسا من حيث أمورها الإدارية إلى ٨٧ إياله، وهذه تُقسَّم إلى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧٠ مديرية، ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ، يُنتخب أعضاء الأول كل أربع سنين، وأعضاء الثاني كل تسع، وهذان

المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين، والقوة الإجرائية بيد الوزارة، وهي المسئولة أمام القوة التشريعية .. وتُقسَّم هذه البلاد من حيث المعارف والأديان والبحرية والبرية إلى مناطق كثيرة تُخالف ترتيب الإيالات، وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد.

ومن نظر إلى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلَّى له أنها هي بلاد الغال المستقلة، وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان، افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨-٥١ ق.م، ولم تكن إذ ذاك إلا خليطًا من العناصر والقبائل لا وحدة بينها ولا جامعة تجمعها، ففي الشمال قبائل جرمانية، وفي الوسط سلتية، وفي الجنوب الغربي أبيرية، وفي الجنوب الشرقي ليكورية، وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات إيطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة، ولم تكن لهم وحده سياسية ولا رئيس أعلى، بل كانوا عبارة عن نحو مائة من الشعوب لهم أوضاع مختلفة ويَحكم على معظمهم مجلس شيوخ، ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوي، ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه أحق بها.

وكانت المدن قليلة جدًّا في بلاد الغال، وغاية ما كان فيها ملاجئ لأوقات الغارات، وهي مراكز الأسواق والزيارات، فبلاد الغال كانت بلادًا زراعية، وسكانها ثلاث طبقات: «الأشراف والمحاربون» ومنهم ينتخب أعضاء مجلس الشيوخ، و«الملوك والفرسان»، و«عامة الشعب» وكانت حالهم تقترب من

العبودية، ولم يكن يملك الأراضي أحد، ثم أصبحت ملكا للأسرات الشريفة .. أمَّا «الحرَّاثون» فهم من توابع الأرض، ويجيء بعدهم «العبيد»..

ويعدل من حال الأشراف طبقة «الدرويد» وهم الكهنة والأطباء والمنجمون والقضاة، ولاسيَّما في أواسط البلاد.

ولما استقام أمير الرمانيين أقاموا زعيمًا عامًا على البلاد مُمتعًا بالسُّلطة المطلقة، مُتصرفًا بالقوة الحربية والمدنية والدينية، ونعني به «الإمبراطور»، وهو زعيم الحرب والمُشرِّع المطلق والقانون الحي والرئيس الروحي والرب، ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان، وتحرَّفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية الحقلية، وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم، وأخذت التجارة والصناعة ترتقي، ولولا أنه كان من حق المالك أن يبيع الأرض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون إلى الفرار.

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدَّاها إلى الأرياف إلا بعد زمن، وكان من فوائد انتشارها أنها أعلنت أن الأحرار والعبيد سواء أمام الله، هذه هي الفائدة الأخلاقية .. أمَّا الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي أخذوه عن نظام الحكومة، ولم يمضِ إلا زمن قليل حتَّى أصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبي أموالاً من الناس ويغدق المؤمنون - وأحيانًا الأباطرة - عليها من المال ما تكونت منه ثورة طائلة، وتُعفَى أملاكهم من الخراج كما يُعفَى خدمتها من المحاكمة مع الشعب، بل كثيرًا ما يحاكم الشعب نفسه في الكنيسة، ولطالما كان الأسقف في أبرشيته خصمًا للحاكم السياسي ورقيبًا عتيدًا عليه.

ولَمَّا سقطت المملكة الرومانية تجزَّأت بلاد الغال إلى عدة ممالك بربرية - كالفرنك والبورغوند والفيزغوت - وعادت كلمة البلاد إلى الانتشار بعد الاجتماع، ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة، ولا يُقيمون للحكومة وزنًا، ولئن كانوا يلبسون الثياب الأرجوانية ويضعون التيجان على رءوسهم - كإمبراطور الرومان - إلا أنهم لم يكن لهم جيش دائم، وليست لهم طريقة منظمة في الجباية، كما أن اللغات في البلاد تعدَّدت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية، وعادت سلطة الأشراف وسلطة رجال الدين تقوَى حتى لم يعد يعترف السواد الأعظم من الناس بالزعامة عليه إلاَّ لهم، ومنهم يطلبون الإنصاف، ولهم يدفعون الجزية والخراج .. وخُرِّبت المدن وهاجر رؤساء الجيش والديار إلى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الأمن في البلاد، وكاد الفلاح يكون عبدًا لسيده - كما في سابق العصور - وفي اليمين الذي أقسم سنة ٨٤٢ في استراسبورج ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين، ومنها نشأت اللغة الفرنسية، وفي معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعتُرِفَ بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريس.

ومازالت الملوك تتوالى عليها وتختلف في المبادئ والأطوار حتى قُبيل نهاية القرن الثامن، وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسي، وزاد عدد المالكين من أبناء القرى زيادة مهمة، وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف في سبيلها من القيود الكثيرة والأنظمة المنوعة، وارتقت الأدبيات وتحرَّرت من قيودها القديمة، وأخذت الفلسفة تبحث في التسامح الديني والحرية السياسية وإصلاح لقوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية، وعارض مونتسكيو

نظرية أن المَلِك مُلهَم من الله وحقه إلهي على سكان الأرض بنظرية الحُكم الملكي النيابي، ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعي.

نبَّهت البارلمانات في مكافحتها سلطة الملوك «سنة ١٧٨٨» أفكار وكلاء الشعب، فبدأت الأمة ترفع صوتها، وكان الملوك يخفونه ولا يرون لها حقًا في مطالبتها بحق، واتفق أن وقعت البلاد في عسر مالي فاجتمع وكلاء الأمة ينظرون في حل ما أصابهم، فنشأت بعد حين الثورة الأولى «١٧٨٩»، وأعلن لويز الرابع عشر أن الأمة كلها للملك، ولكن جاء في قانون حقوق الإنسان والوطني أن مبدأ كل سلطة ينبعث من الأمة بجوهرة، فما من جماعة ولا من شخص يستطيع أن يحكم حُكمًا لا يكون صادرًا عنها بالفعل .. وهكذا مات حق الملوك الإلهي المزعوم، وأتت الثورة على أعشار رجال الدين والإقطاعات والسخرات والأحكام التي يحكمها أرباب الإقطاع، وساوت بين الناس في الواجبات والضرائب، وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد إليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق، وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن، وتساوى كل وطني من أكبر كبير إلى أصغر صغير في الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كلٌ بحسب طاقته وثروته.

هذا موجز الأساس الذي قام عليه بناء النظام الجمهوري، ثم عراه قليل من التعديل بتقلُّب أنواع الحكومات وقيام بعض الأدعياء بالملك إلى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع ألمانيا، وعندها استقرت الحال على ما تراها إلى اليوم.

أمّا نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ، ويقال على الجملة إن اللغة الفرنسية هي بنت اللغة اللاتينية، تكونت على صورة غربية إلى أن وصلت في عشرين قرنًا إلى حالتها الحاضرة، وكانت أدبياتهم دينية لأول أمرها (وبعضها شعري ونثري وأكثرها خرافي)، ولم تخلص اللغة من القيود العائقة إلا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، وتاريخ العلم ونشأته فيها طويل كتاريخ الأدب .. ويقال على الجملة فيه إن مارسيليا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد في بلاد الغال، واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات أثينا وكلية الإسكندرية .. وكان بيتياس – أحد أبنائها الذي وُلد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح – لا يقل عن أعاظم الفلكيين في القديم، وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة، والتعليم فيها عبارة عن مبادئ عملية من الحساب والمساحة والبناء .. ثم جاء دور الانحطاط التام، فأصيب الغرب بغارت البربر، ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية إلا بعد ثمانية قرون بفضل العرب، وبينما كان التمدّن الإسلامي بالغًا أوجّه كانت العلوم مُنحطّة كل الانحطاط في أرض فرنسا، ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا إلاّ بمساعي أطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي عشر، فاعتصموا بإسبانيا أولاً، ثم بإقليم لانكدوك حيث أسّسوا عدة مدارس، ومن جملتها مدرسة مونبيليه، وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الأرض، فمن العرب أخذ الفرنسيون فيما مضى حضارتهم، ونحن العرب اليوم نأخذ عنهم وندهش بحضارتهم .. فسبحان المعز المذل القابض الباسط!.

الصحافة الباريسية

٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدأ أمرها بنشر أخبار الملوك والوزارت والموظفين والحروب والدول، ثم ارتقت بارتقاء المدارك إلى أن صارت تلم بمعظم الموضوعات التي تهم القراء وتُعلِّمهم، وعلى عهد الثورة اشتدَّ ولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء والسياسية، والى هذا العهد ظلَّ الصحافي وراء منضدته يكتب ليُفيد مثل الأستاذ على منبره والواعظ في معبده، لا يقصد إلاَّ تثقيف عقل وتربية نفس.

ولما تكالبت النفوس على المال، واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات والبرقيات، وأخذت التجارة ترقى، ودخلت الصحافة في طور جديد، فبعد أن كانت هي خادمة للتجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يُقصد منها إلاَّ الربح، وأول من أنزل أجور اشتراكاتها إميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ١٨٠ و ٦٦ فرنكًا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكًا، وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات، أنزلها ليكثر قراؤها، وإذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها بإعلاناتهم ومنشوراتهم، فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الأفراد والحكومة والأحزاب.

ولكن هذا الاستقلال، وإن لم يُكتب لها كلها، إلاَّ أن سعيها وراء الإعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيَّدها أكثر من قبل، بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريسية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلاَّ أن يقبض العمالة من البائع والشاري، وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فقصصها وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية

والخارجية والأنباء المنوعة والمقـالات الأدبيـة والاقتصـادية والسياسـية والإعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه، مثل أخبـار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا يُنشر منها اسم ولا سطر إلاَّ قبـل أن يذهب صاحبه الذي يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغًا معلومًا عنـه، وعند ذلك ينشر له من الأفكار والمجامد ما يشاء وتشاء الأهواء.

فإن كاتبًا أو طابعًا لا يقدر أن ينشر كتابًا طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير، وهذا إذا فرض أنه رضي بأن يخدمه بالمجان، يسأله مدير الجريدة عن ربح الإدارة من ذلك، فمقاله في تقريظ كتاب قد تُكلِّف الطابع ألفي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مـدير الجريـدة، ومثـل ذلـك يتناولون من المصورين والموسيقيين والممثلـين والراقصـات والعقـيلات والآنسات والأعاظم والأصاغر، لا تُدوَّن أسماؤهم بالطبع قبل أن يرشوا إدارة الجريدة بمال ترتضيه، وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الأزياء مع بائعات الزهور والجوهريين والخياطات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الأصناف، بل إن أخبار الأعراس والأفراح وأخبار النعي والأموات لا تُكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها، والأعمال الأدبية مهما بلغ من مكانتها لا تذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جعالة لقاء ذكر اسمه.

وهناك الماليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبثـوا بحوالـة الأسـواق، ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيرًا في أعمالهم، فيعمدون إلى ابتيـاع الجرائـد لتكتب في السياسة على هواهم، فيرفعـون الأسـعار يـوم يريـدون الرفـع ويخفضونها كذلك بما لهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الأفكار العامة، منهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها، فدار اللعـب فـي

إمارة موناكو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشأ من المقامرة، كما تدفع مبالغ جسيمة أيضًا في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونت كارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها.

وإن أعظم علماء الاقتصاد لا تُنشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من تلك الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء، وبعد حادثة بنما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الفرنسية لم يعد يقدر الإنسان أن يقرأ سطرا في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه.

وهكذا أصبحت الصحافة الباريسية مُقيدة في صورة حرَّة مطلقة، ففي وسعها أن تضرب في كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل أمريء وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد، ولا يحظر عليها إلا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الأسرار المالية، فإذا فعلت يُحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر، وكذلك إذا دلَّت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل الفلاني منذ سنين.

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب ألاَّ تُقرأ إلاَّ بحذر شديد، حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فإنها لا تنشرها إلاَّ ولها منها مآرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو في عدد تال، وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الأحزاب جهارًا؛ فإن هذه تقلب الحقائق الناصعة وتُجسِّم الحوادث أو تضعفها بحسب هواها، وتستعمل من السفسطة ما يُضحك ويُبكي.

فكأن الصحافة الباريسية جُعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب، فهي تُزيد إلى ضعف البشر الطبيعي وغلطهم

وأخطائهم أمور تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه، فمنها ما يخضع للحكومة في كل ما يكتب، ومنها ما يخضع للأحـزاب، وكلهـم خاضـعون لزبائنهم، وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يُحسن المرء دفـع المطلوب منه، فقد قيل «إن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة» والصحف الفرنسية تُكرِّم الحقيقة من هذا النوع .. أي أنها هي الرذيلة.

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسي في هذا الباب، وصـاحب الـدار أدرَى بالذي فيه، وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعـات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسية كلها ترتشي وتلفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة «الأومانيته» أي الإنسانية، وهي لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين، تعيش من وارداتها الشرعية، ولا تسف لتناول رشوة من أحـد، وأنَّ الصحافة الإنجليزية أشرف غاية ونبل قصدًا وأكثر مادة وأوسع مصادر، أما أنا فعلَّلت هذا التصريح من أصدقائي الفرنسيين بأن إنجلترا هـي أرقـى الأمم بأخلاقها، والأخلاق هي معيار الأمم والجرائد مرآتها.

ومن الصحف الباريسية ما يصدر صباحًا، وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية، بل بالأمور المالية والحركة الأدبية، كدور التمثيل والخطب وغيرها .. أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة، فـ«الطان» و«الديبا» من الجرائد المسائية و«الچورنال» و«الماتين» و«البتي باريسين» و«البتي چورنال» من الجرائد الصباحية، والجرائد طبقات: قسم لعامة القرّاء وهي التي ينادي عليها المنادون في الشوارع بأعلى أصواتهم وتُباع في كل مكان فيقرأهـا البـواب والحوذي والمسَّاح والكساح وسائق الأتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعـض التجار، وذلك كأكثر الجرائد الصباحية .. وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهـم

بالطبع، مثل: «الطان» و«الديبا» و«الجولوا» و«الفيجارو»، وهذه لا يُنادَى عليها، وتُباع بثمن أغلى، فالطان تُبتاع عددها بثلاثة فلوس أو خمسة عشر سانتيمًا، في حين تُباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد، وهي أكبر حجمًا وأوسع مادة من هذه، ولكن شتَّان بين مادة ومادة وحجم وحجم.

وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعني كثيرًا بأخبار هذا الشرق الأدنى خاصة والسياسة الشرقية عامة، وهي جريدة وزارية تُقدِّس كل وزارة تأتي، وهذه بالطبع تعطيها أخبارًا، وربما أمدَّتها بمعونة مالية، وهي لا تُذيِّل المقالات السياسية والإخبارية بأسماء كُتابها على عادة معظم الجرائد السياسية، وبذلك قد تقع لها أن تؤيد اليوم في مقالتها الأولى فكرًا بعينه، ثم يجيء كاتب آخر من الغد في نفس ذاك المكان من الجريدة فيُضعف ذاك الرأي نفسه وينتقده، وأعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه، وربما كانت جريدة الأيكودي باري من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية إخبارية عنه بدون تعليق على الحوادث، ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب إلى الثقة والتعقل من غيرها، ومع هذا تؤخذ بكل حذر، شأننا مع عامة الصحف الإفرنجية التي تقول الحق، ولكن إذا صادف هوى لها، وهيهات أن تقوله بدون عوض، ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشي من السلطان عبد الحميد المخلوع، ولكن علمت هنا أن الطان أيضًا – على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة – كانت لا تستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يومًا لِعلم المخلوع بمكانة أقوالها في الأندية السياسية.

وأنواع الجرائد هنا كثيرة، ومنها اليومي الذي لا يكتب إلاَّ في موضوع واحد مثل جريدة «كوميديا»، وهي تبحث في دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها، ومنها جرائد للسباق مثل جريدة «الاوتو»، وهي لنشر أخبار سباق الحوافل وغيرها من أنواع السباق، ومن جرائدهم ما هو خاص بتأجير الأملاك والعقارات، ومنها الخاص بطلاَّب الزواج وطالباته، ومنها للأزياء وأخرى للعطور والطيوب، ومنها للأخبار الخلاعية .. ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تُطبع سرًّا وتُوزَّع كذلك، وإذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها.

أمَّا تنظيم إدارات الجرائد الكبرى فهو الغاية، ولاسيَّما الأمهات منها مثل «الماتين»، وهي في أعظم جادة، وبنايتها أجمل بناية، وآلاتها الطابعة أحسن الآلات، فيها اثنتا عشرة واحدة تطبع الواحدة مائة ألف نسخة في الساعة، زرتها مع زهاء سبعين رجلاً وامرأة رأيتهم سبقوني إلى زيارتها، فما رأيت نظامًا أتم ولا استعدادًا استوفى من الكمال أوفى القسم، ومن أحسن ما قرأته مما كُتب فوق غرف المحررين «خُلق المحرر ليكتب، فلا تُشغله فيما لا يَعنيه»، وزرت أيضًا إدارة البتي باريسين، وهي دونها في الاستعداد، وإن لم تكن دونها في الانتشار والنفاد.

❀❀❀❀❀

٢٦

ألمحنا مرات في الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين في الأمور الذوقية، والطباعة من جملة فنون الذوق، وإن كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة، وأجور الطبع هنا غالية لعلو الأسعار وأجور الدور والمنازل، فالعامل الجيد لا يُرزق أقل من نصف ليرة، وأقل عامل لا يُرزق أقل من أربعة فرنكات في يومه، ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم في مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طباعتها الذي لا يختلف عن المطابع الباريسية في شيء.

ومن جملة المطابع العظمى التي زرتها «مطبعة الأمة» أي مطبعة الحكومة التي أسَّسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠م، ثم نُقلت إلى قصر الكردينال روهان من أجمل القصور الباريسية القديمة المعروف بـ«بيت أساقفة ستراسبورج»، وقد أنشئت لها بناية هائلة في شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع.

تدخل من الباب فترى في فناء الدار تمثال جوتنبرج مخترع الطباعة والمتفضل على الإنسانية معمولاً من البرونز، فلا تتمالك من الدعاء له وذكر بيض أياديه على العالم، ثم يأخذك الدليل في الوقت الذي تعينه لك من قبل إدارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف، وفيها حروف في ثمانين لغة، واللغة العربية في مقدمة لغات الشرق، رأيناهم في بعض الغرف

كتبوا بيتًا من الشعر العربي ليمرّن الأستاذ العمال على تعلُّم هذه اللغة فيُحسنوا تنضيد حروفها بفهم.

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطي، فرأينا كل شيء قد جُعل في مكانه اللائق به، والعمال والعاملات يعملون في مكان واحد كتفًا إلى كتف، وقد يتولّى الأعمال الشاقة الرجال من دون النساء، وعدد العاملين والعاملات في المطبعة يناهز الألف وخمسمائة، وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز، منها خمس آلات من المعروف بـ«الروتاتيف»، وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى في الغرب اليوم، وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك، وفيها تُطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومنشوراتها وفهارسها وأوامرها، فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه، وليس في وقتها متسع لطبع مطبوعات الأفراد .. وناهيك بمطبعة حَوت من الأدوات ما يلزمها من سبك الحروف حتى التجليد، وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التي تقع ميزانيتها وحدها في ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها في وقت قصير .. وهذا لا يتيسَّر إلاّ بمطبعة متقنة جدًا.

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسي وطبع الصور والطبع المحفور المجوف والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر الناتئ على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة، وتسمح المطبعة بإعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الأجنبية ولا تطبع من الكتب إلا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة، وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون.

هذه جملة ما يُقال في مطبعة الأمة، ولو جُمعت مطابع مصر كلها ما دانتها بالمكانة، وكذلك لو جُمعت مطابع الآستانة وأضفت إليها مطـابع الولايـات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربعمائة وخمسـين ألف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانيـة والمصـرية أن تقوم بمثلها، وهي لا تُنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل .. فتأمل.

مدرسة فرنسا

٢٧

من المعاهد التي استغرقت شطرًا كبيرًا من وقتي في باريس دروس مدرسة فرنسا (كوليج دي فرانس) لسهولة التلقي فيها في كل علم يخطر في البال، ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الإسلام أيام حضارتنا وقد جعلوا العلم مُباحًا لكل طالب يلقنونه إيَّاه بلا عوض.

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه «فرنسيس الأول» ملك فرنسا حوالي سنة ١٥٣٠، وجعل فيه درسين: الأول لتعلم اللغة الآرمية، والثاني للعبرانية .. وسمَّى المدرسة «مدرسة الملك»، فرأت الكلية إذ ذاك أن قد استُهين بها فأوعزت إلى مدرسة اللاهوت أن تتهم مدرسي مدرسة الملك بأنهما يدعوان إلى الزندقة، فحال الملك دون صدور الحكم عليهما، وأضاف إلى المدرسة درسًا في الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الإلحاد، ومازال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونابليون الأول درس التركية، ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضه للقلب والإبدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة.

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تُلقَى على الناس مجانا ٤٩ درسًا، يصح أن يقال إنها مجموع علوم البشر، يتولَّى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة، وصرفوا في البحث فيه شطرًا مهمًّا من حياتهم، ولم أرَ في هذه المدرسة أستاذًا تقل سنُّه عن ستين إلاَّ

بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين وينتخبهم المجمع العلمي أو المجامع العلمية الخمسة وأساتذة المدرسة، ويقبض الأستاذ عشـرة آلاف فرنك في السنة، ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط.

أمَّا العلوم التي تُلقَى على جمهور المستمعين فهي:

(١) علم الأثقال التحليلي والسماوي.

(٢) العلوم الرياضية.

(٣) علم الطبيعة والرياضة.

(٤) الطبيعة العامة والتجريبية.

(٥) الكيمياء المعدنية.

(٦) الكيمياء العضوية.

(٧) الطب.

(٨) علم الحياة العامة.

(٩) تاريخ الأجسام غير العضوية الطبيعي.

(١٠) علم تكوين الجنين.

(١١) التشريح العام.

(١٢) علم النفس التجريبي.

(١٣) تاريخ العلوم العام.

(١٤) تاريخ التشريع المقابل.

(١٥) الاقتصاد السياسي.

(١٦) الجغرافيا والتاريخ والإحصاء الاقتصادي.

(١٧) تاريخ العمل.

(١٨) جغرافية فرنسا التاريخية.

(١٩) تاريخ الأديان.

(٢٠) الفلسفة الاجتماعية.

(٢١) علم الاجتماع الإسلامي.

(٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون.

(٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية.

(٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية.

(٢٥) الكتابات والعاديات السامية.

(٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها.

(٢٧) الآثار الآشورية وأصول لغاتها.

(٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية وأصول لغاتها.

(٢٩) الآداب العربية واللغة العربية.

(٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى.

(٣١) آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية ولغاتها.

(٣٢) آداب اللغة السنسكريتية.

(٣٣) آداب اللغة اليونانية.

(٣٤) فقه اللغة اليونانية.

(٣٥) تاريخ آداب اللاتينية.

(٣٦) التاريخ الوطني والعاديات الوطنية.

(٣٧) الفلسفة الحديثة.

(٣٨) اللغة الفرنسية وآدابها في القرون الوسطى.

(٣٩) اللغة الفرنسية الحديثة وآدابها.

(٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها.

(٤١) لغات أوربا الجنوبية وآدابها.

(٤٢) اللغات والآداب السلتية.

(٤٣) اللغة السلافية وآدابها.

(٤٤) علم النحو المقابل.

(٤٥) العاديات الأمريكية.

(٤٦) الرياضيات.

(٤٧) تاريخ فن الموسيقي.

(٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية.

(٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها.

هذه العلوم التي تُدرس في مدرسة فرنسا، ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو في خلالها الأستاذ زبدة علمه وبحثه، ولا يكثر المستمعون إلاَّ في بعض الدروس التي رُزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان، وأكثر الحضور غرباء – أي غير فرنسيين – وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وإنجلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد وإسبانيا وأمريكا ليغترفن من مدارس باريس ويحكمن لغتها الجميلة.

فكأن أهل هذه العاصمة زهدن في حضور هذه الدروس المجانية، وأزهد الناس في الرجل أهله وجيرانه، وإن كانت يُقدم دروسها جملة من أحسن أساتذتها مثل فاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين، وماسيرو وغانو

الأثريين، وچوليان ومونو المؤرخين، وبرجسون وريبو الفيلسوفين، وغيرهم من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويعترف من درر بحورها عاشق العلم.

وإن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفًا ليس وراءه غاية، ويدل على تفانيها في نشر المعارف والأخذ بأيدي القائمين عليها، وينادي بلسان الحال والمقال على توالي العصور والأجيال أن فرنسا إذا هرمت في سياستها وأخلاقها فهي على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها.

❁❁❁❁❁

التجارة الباريسية

٢٨

لم يكتفِ الفرنسيون – بل الغربيون – بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية، بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلدًا آخر أو مملكةً مملكةً أخرى، كأن المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت في صدر الكبير والصغير من الإفرنج، فكان من آثارها ما يُبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة.

رأيت روح الاجتماع مُستحكمة في أعمال الأوربيين، فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تُصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات، ليخفَى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع، فقد ظهرت لتلك الأمم نتائج الاشتراك جماعة ظهورًا لا يُنكره إلاَّ من يكابر حسه ويغش نفسه، فأنشأ من كانوا إلى الانفراد في متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض، ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد، عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الإنجليزية السكسونية.

مثال ذلك مدينة باريس مهد الحضارة اللاتينية، فإنك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الأفراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت، وكلها أيلة طوعًا أو كرهًا إلى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة، دخلت كثيرًا من مخازن باريس، فكنت أشهد – على

قلة إلمامي بفن التجارة – روح الجماعة مرفرفة عليها، وتعدُّد القوى زائدة في نمائها، وحُسن الذوق وسلامة الإبداع تتخلَّل أرجاءها وتزيد بهاءها.

باريس أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا، ورءوس أموالها مُقدَّمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك إلاَّ لندن، وقد بلغ عدد ما في باريس من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء ألفي محل توشك أن تكون كلها لشركات، وأعظم متاجر باريس – بل فرنسا – تجارة الأطعمة المُحضَّرة والأمتعة والثياب والأزياء، وكلها مهمة جدًّا، لا بكثرة عددها، بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها.

زرت بعض هذه المخازن من مثل لابل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفابيل، وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطرًا واسعًا من أقطار الشرق، ويحتاج وصفُه إلى الكلام ساعات، على شرط أن يكون المتكلِّم عارفًا بالتجارة وما يُتصرَّف أو يتوقَّف عليها وتتوقَّف عليه، وكل مخزن يُعد مستخدموه وموظفوه بالمئات، ففي مخزن دوفايل – وهو لفرش الدور والقصور وما يلزم لها من الأثاث والرياش والأواني والسُّرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرُّج والبذخ والرفاهية – ما يأخذ بمجامع القلب، ويُعد من أغرب غرائب الغرب .. ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يُلقي نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة، وهو قصر فخيم جدًّا لم أرَ أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدي الباريزي، وفي مخزن دوفايل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل لألعاب السينماتوغراف يختلف إليها

الزائرون بأجور معتدلة جدًا، والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذلك المحل الكبير فيكون مرورهم بها وإلقاء أنظارهم عليها بمثابة إعلان عمًا فيها من العلائق النفيسة، وببركة الإعلان يشتري من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء.

ومن الغريب أن هذا المكان - الذي لا يُشبهه في الفخامة إلا أرقى قصور الملوك والأمم كما قلنا - أخذ الآن في توسعه مخازنه لأنها ضاقت به على سعتها! وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه، وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف «كبيربل»، هو في سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف «الكريدي ليونيه» في القاهرة لا في باريس؛ فإنه هناك العجب العجاب بعينه.

وقرأت في إحصاء أخير أن مخزن لافاييت أحب أن يُزيد رأس ماله فقرر مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مليونًا ونصف مليون من الفرنكات، فإذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون أصل رأس المال؟!

ومما هو حري بالنظر في المسائل الاقتصادية أن أهل باريس - على شدة كرههم الألمان - يبتاعون في بلدهم البضائع الألمانية لرخص أسعارها والتفنن في إبداعها، حتى كادت بضائع الألمان تأتي على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها، وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم، ومثل ذلك قل على ما قرأته في إحدى المجلات عن تجارة لندن أو تجارة نيويورك، فإن القسم المهم منها بيد الألمان يصرفون على الإنجليز والأمريكان سلعهم، وحكومة إنجلترا وأمريكا - مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية - لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية

ولا بغيرها أن تقيما سدًّا منيعا دون تسرُّب البضائع الألمانية إليهم، ولكن ألمانيا أو العنصر الجرماني ومن لفَّ لفَّه تُحارب هذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف، وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة.

ذكر الأحصائيون أن مدارس ألمانيا تُخرِّج كل سنة أربعين ألف طالب وبيدهم الشهادات التجارية، فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد؟ وهل لهم إلا أن يصرفوا متاجرهم في مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة؟ فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن في المعارف التجارية؟ وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها وإليها كما يكتب الفرنسية أو الإنجليزية ويترجم بها ومنها؟

قال لي أحد علماء الألمان: أتدري بأي شيء غلبنا الفرنسيين في حرب السبعين؟ قلت: لا أعلم .. قال: غلبناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم، أمَّا هم فلم يكونوا يعرفون ما عندنا.

وأنا أقول إن اقتصارنا – معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة – على تعلم اللغة الفرنسية في الأكثر هو من الاحتكار الضار، فيجب أن نعرف – أو بعضنا – لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربًا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيين مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين، جهلوا ما عندهم فخسروا في مادياتهم ومعنوياتهم.

نعم، نتوفر على الآخذ من أوربا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها، فنحول وجهتنا بعد الآن إلى ألمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها، ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق، وعن إنجلترا السياسة والعلوم والبحرية، وعن إيطاليا الصنائع النفيسة، ونجعل للُّغة الألمانية والإيطالية حظًّا من عنايتنا

حتى لا تكون حكرًا مضرًّا لحكومة خاصة من حكومات الغرب، فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كلها بوئام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكن من الجامدين على أمّة بعينها، والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا، لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع.

❁❁❁❁❁

الإعلان أساس التجارة

٢٩

تقدَّم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريس تبيع ما تبيع ببركة الإعلان عن نفسها، وهنا مجال لأن أُفصِّل ذاك الكلام المُجمل فأقول: كل من زار مدينة أوربية أو أمريكية من أبناء هذا الشرق الأقرب يأخذه العجب من وفرة الإعلانات وتفننهم في نشرها، والفرنسيون في الإعلانات مُقلِّدون لا مُجتهدون، قلدوا الأمريكان والإنجليز، وهؤلاء يُنفقون عليها نفقات لا تكاد تُصدَّق، فقد ذكروا أن معمل الموازين فيربانك وشركاؤه الذي كان يُنفق على الإعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك أخذ اليوم يُنفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك، وقد كان أحد معامل الصابون قد خصَّص ثلاثين ألف دولار للإعلان عن مصنوعاته، وهو اليوم يصرف ألف دولار في اليوم .. وتُخصص المعامل الكبرى التي تبيع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين دولار في السنة لنشر إعلاناتها في الصحف، وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم بإعلاناتهم، وقد أنفق أحد أصحاب المخازن لإرسال طبعة واحدة من الإعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف دولار، وليس من محل في أمريكا إلا ويصرف خمسة في المائة من أرباحه على الإعلانات، وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف دولار للإعلان عن موسى (شفرة) فباع ستة ملايين موسى، وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للإعلان عنها مليوني جنيه.

فاشتهار اسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي وترديده في أفواه أرقى الأمم وأوحشها موقوف على كثرة التفنُّن في الإعلان

عنه، والبذل في هذا السبيل عن سعة، حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الأمريكان: إذا أردت أن تبيع قُبعة بدولار فإنك تستطيع أن تبيعها بدولارين إذا وضعت اسمك عليها؛ وذلك لأنك تُفهم الناس بأن لاسمك بعض القيمة.

وذكروا أن شركة وان سي الأمريكية (وهي شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملاً رأس مالها ٦٩٠ مليون دولار، وكان مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢، ١٨٧,٠٠,٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها مليارًا و ٤٨٥ مليون دولار، فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف) ذكروا أنها توصلت بفضل التفنن في الإعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءًا عظيمًا آخر من أرباح الشركات الأخرى إن لم تكن التهمتها حتى الآن.

والطرق إلى ذلك مختلفة، فمن ضروب الإعلانات الإعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها، ووضع صفائح مُنحَّسة في الصفحة السابعة أو الثامنة - أي الأخيرة - وإعلانات في شبك، ودس الإعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والأزياء وإدماجها في المقالات، وتعليقها على حيطان الدور، وفي شوارع المدن والقرى، وعلى طول السكك الحديدية، وفي أماكن النزهة، والمناظر التي يسرح فيها النظر، وفي عجلات الحوافل والتراموای والسكك الحديدية تحت الأرض وفوق الأرض، وستائر دور التمثيل والقصور، وجميع الأماكن العمومية حتى المراحيض .. وتُرسم الإعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده، وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارموتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد، وتجعل من الورق الملون والمقوي

والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها، وتبدو في المساء بألوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره.

ومن غريب تفنُّنهم في الإعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يعلن في جرائدها بأنه يقدم مفتاحًا بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه أو خزانته، فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلاً كاملاً ويُغيِّر القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص، وربما هانت عليه السرقة، فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن، ولكن النصح يفعل في أكثرهم .. واخترع أحد البدَّالين من بائعي المأكولات المحضَّرة في لندن طريقة للإعلان عن محله بأن اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل، فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على نفقته، فتحدَّث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالإعلان عن نفسه، ومن غريب تفنُّنهم أن أحد مخازن القبعات في بلتيمور في أمريكا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل، فاهتدى إليها وأعطاها مائة دولار على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة «كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو إنَّ محل المستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين» ثم قطع عنقها واغتنى صاحب العمل.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفي إلقاء النظر على حائط أو مجلة أو جريدة لتعرف مبلغ تفنُّن الغربيين في الإعلان والأساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المنوعة، ومنها المضحك وغيرها، وبعضها لطيف وآخر بشع، ومنها السياسي والأدبي والعلمي .. وقد جعل الإنجليز السكسونيون للإعلانات قواعد حتى صارت علمًا من العلوم لا يُبرز فيه إلا من حَسُنَ ذوقه وعرف

النقش والرسم والتصوير والطباعة، وكان مُلمًّا بالاقتصاد السياسي وعلم النفس ومحيطًا بعالم المالية والصناعية والتجارية والجرائد والمجلات، وكان ذا هبة بالتفنُّن والأدب والخطابة حاسبًا كاتبًا مقنعًا يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أو يُحسن علم الحال.

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا بأجور إعلاناتها، حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة «لادي هوم چورنال» بلغت ألف جنيه، ويؤخذ من إحصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع ما يُطبَع من أعدادها من كل نسخة ١١٤,٢٩٩,٣٣٤، ومجموع ما تطبعه في السنة ٨,١٦٨,١٤٨,٧٤٩، وبلغ مجموع إيرادها تلك السنة ٨٧٨,٩٤٨,٢٥ فرنكًا منها ٤٧٩,٣٠٥,٦٣٥ فرنكًا من أجور الإعلانات، أي ٥٤,٥ في المائة من مجموع دخلها، وتطبع بعض الجرائد نُسخًا خاصة بنشر الإعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها، ومن الجرائد ما لا يطبع غير الإعلانات وتُوزَّع مجَّانًا .. ويصرف أحد بيوت الثياب في فلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من إحدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها «لرو كورد»، ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد، ومن كُتَّاب الإعلانات من يُرزق ألف ليرة في السنة.

ومن الإعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن، بل هم يطبعون إعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل، فيُرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاءون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضًا، وهذه الطريقة اخترعت في

الولايات المتحدة لأن ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القُرى والمزارع بعيدين غن مراكز التجارة وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لاتباع ما يشاءون، وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم، وناهيك بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشاري، وفي شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك، وإن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما يلزم أصحابها، وقد حسبوا أن عشرة ملايين - أي ثُمن أهالي الولايات المتحدة - يبتاعون حاجياتهم على هذه الكيفية.

وإن لأحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبائنًا يبلغون مليوني نسمة، يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة، وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة، بل تجعل كل ستين منها في آلة تُفتح كلها بلحظة، ثم ترسل إلى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طلب مع ما يضارعه، وتجعل في لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وتُرسل في أسرع ما يمكن إلى البيوت التي تقدم للمحل طلباته - وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع - فتأتي كلها على جناح البرق، بحيث يكون العمل ما أمكن مُستغنيًا عن الأيدي الكثيرة، على أن محلاً واحدًا من هذه المحال التجارية التي تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم، ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة، وثروته تُعد اليوم بملايين الليرات، والناس يطلبون إلى محله والى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم، ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته!.

وعلى الجملة: فإنك لا ترى في ديار الغرب محلاً تجاريًّا أو معمـلاً أو مُشتغلاً بالفنون الجميلة، بل ولا عالمًا ولا كاتبًا ولا صانعًا إلاّ ويُنفق جزءًا من ماله على الإعلانات ليربح المائة مئات .. وللإعلان يد طـولى فـي عامـة الأعمال الصناعية والزراعية والعملية، ولولاه ما رأينـا المخـازن الكبـرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى، فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيُعلن خصوصًا عن أصقاعه الجميلة ليجذب السياح إليها ويـربح منهم مئات الألوف من الليرات كما فعلت سويسرا واغتنت بعد فقرها بكثـرة تشويق العالم إلى زيارة ربوعها، وكما فعلت فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأمريكا مثل مدينة دالاس في ولاية تكساس في الولايـات المتحدة، فإن أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة، فاز مع بعضـهم أن يُؤسّسوا ناديًا سمّوه نادي المائة نسمة والخمسين ألفًا، أي أن مدينتهم سـتكون سنة ١٩١٠ مائة وخمسين ألف نسمة، وما برحوا يتذرّعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفًا، وتوصلوا إلى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له إن شمالي تكساس هو حديقة الرّب، ومدينـة دالاس تطالـب – ويحق لها ذلك – أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة.

نعم، إن الإعلان أساس من أسس الثروة اليوم، بل هو سبب من الأسـباب المعقولة المشروعة، وأثره في الإعلان عن الأشخاص ظاهر، وكم من نابـه اشتُهر بتحدث الناس في أمره، ومن آخر خمل ذكره لأنه لـم يعـرف كيـف يتوصّل إلى الشهرة، فعاش ومات ولم يدرِ به أحد، فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين.

دور التمثيل والأنس والاجتماع في باريس

٣٠

إنَّ ما شهدتُه من التمثيل العربي المنحط جدًّا في الديار المصرية والشامية زهّدني في التمثيل على أنواعه، فصرت لا أختلف إلى دار تمثيل إلا مُكرَهًا، وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه، وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم، بل لم يكن لهم ما يُشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزّتها، ولذلك قلّما مال أبناء العرب إليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها.

ولما حللت باريس كان من أوائل المسائل التي توخّيت دراستها حالة التمثيل في الغرب، والسر في توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يُخدم الشعر والموسيقى والخطابة، بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونهما، وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف إلى دُوره ولو مرة في الشهر، إن لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع.

والتمثيل في باريس من أعظم ملاهيها، وقلَّ أن تجتمع لعاصمة ما اجتُمع لها من ضروبه، ولشدة عناية الحكومة به تنفل من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغًا تستعين به على تحسين حالها، فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك، والتياترو الفرنسية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار، وتعطي الأوبرا كوميك ٣٠٠ ألف، وتعطي الأوديون ١٠٠ ألف فرنك .. وفي باريس ٣٥ دار تمثيل كبرى

ذهبتُ إلى أشهرها مثل الأوبرا التياترو الفرنسية والأوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها.

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لي سر تغالي الغربيين بالتمثيل، وإنه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح، فلا عجب إذا عدوه من أكبر العوامل في نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهم، وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله، وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته.

أما دور التمثيل فهي قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يُحرم الحضور - على اختلاف درجاتهم - من سماع ما يُقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهد والمناظر، وكفى بأن دار الأوبرا كُلِّف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر، وأقل دار تمثيل تساوي عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات، وإن مما يُبهج جوق الموسيقى في الأوبرا وقد حزرته بمائتي شخص، وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما أظن جمهرته تقل عن خمسمائة.

وإذا عرفت أن الأوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة، أي ١٢٨ ألف عن ٦٤ ليلة في السنة، وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألف إلى ٣٠ ألفًا، وعن كل ليلة يغني فيها كروزو عشرة آلاف فرنك، وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل إعانة الحكومة للأوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها.

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي إلى مسمعي أصوات الممثلين والممثلات وتتفتق ألسنتهم

بكلمات الحكمة والأدب ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها كأنك تراها، فلا أتمالك من توقير الممثلين والممثلات وإكبار فائدة التمثيل .. المدارس لتنشئة الصغار في وقت معين من السن، ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابًا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة.

حضرت رواية «مثل الأوراق» في الأوديون ورواية «الباريكاد» لبول بورجه في الفودفيل ورواية «چان دارك» في تياترو سارة برنارد ورواية «الجندي الصغير» في الشاتليه فكان يُخيَّل لي وأنا أسمع وأرى أن الأمر واقعي، وأن هذه المشاهد حدثت الآن، وقد اجتمع جمال الصوت إلى جمال الوجوه إلى جمال الكلام إلى جمال الهندام إلى جمال المكان إلى جمال النظار، وأقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري أي شيء ترى ولا أي فائدة تعي.

وما أظن اكبر مُتنطِّع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمى يستطيع أن يعيب شيئًا مما يشهد، وأي عين لا تقع على سارة برنارد أشهر ممثلة فرنسية وهي في الخامسة والستين من عمرها تمثل دور چان دارك وهي في التاسعة عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها، ولا ترتاح وتعجب؟ وأي إذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم «إن الطبقات الاجتماعية كالأمم يضيع حقها في حفظ ما لم تقوّ على الدفاع عنه» ولا يفكر طويلاً؟

ولقد رأيت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئًا من الخلاعة مثل «مولن روج» أن الأدب يغلب على السامعين والناظرين، وأن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات، ولا ترى إلا من يغض الطرف حياءً وأدبًا، والغالب أن النساء

يلبسن لليالي التمثيل أجمل ثيابهن وأزيائهن كأنهن في بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن، وقلَّما تراهن في الشوارع إلا مكتسيات من اللباس بما خفَّ محمله وقل ثمنه.

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدًّا في باريس، وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها، ويكون فيها المرء بحسب مبلغة من التهذيب، وموسيقى الإفرنج وعزفهم وزفتهم يستحسنها الشرقي مع طول الألفة لها والأنسة بها، ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه مجرومًا من لذائذ الدنيا ساقطًا من رسوم الهيئة الاجتماعية، ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيرًا ولا يري فيها حرجًا ولا نكيرًا .. سُنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

❁❁❁❁❁

٣١

قضيت شهرين اثنين في هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهي من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار، ورأيت العمال في حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الأغنياء في مقاصفهم وشاركتهم في نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم، ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطلعًا طلع خلق جاريًا من الاختبار فيه على عرق، فكانت عيني تمل النظر وأذني تسأم السماع وذهني يتأفّف من التفكير وقلبي يتخوّف كثرة الوعي، ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها، ولاسيَّما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مُزيَّنة كقصور الأحياء ومُقطَّعة إلى طرق ومناطق.

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذي طغى على السدود والسكور فدكّها وبثقها وأودى بالأموال الجسيمة من ناطق وصامت، ركبت القطار وقت الظهر إلى الحدود الألمانية فكان نهر المو والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والأودية، ولم يصل القطار إلى نانسي على الحدود ويبلغ ستراسبورج في ارض الألمان وقاعدة الألزاس إلاَّ وقد انقلبت تلك الأمطار ثلوجًا وذاك الهدير سكونًا ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض

الناصع، وبلغنا ميونيخ عاصمة مملكة بافيرا الألمانية صباح الغد فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت ألاَّ أضيع الفرصة، فأخذت أطوف المدينة، ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أرَ منها إلا واجهات الأبنية ورءوسها، وهنا تمثَّل لي النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا ألتفت عن يميني وشمالي فلا أسمع إلا الألمانية التي لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية، وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيوم يتكلمون بالفرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم، حتى إذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني إلى ڤينا عاصمة النمسا.

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول إنني يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتي بلسان أهلها واطِّلاعي على تاريخهم وعاداتهم، فكنت كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطرًا من الأقطار العربية في غربي آسيا أو شمالي أفريقيا، ولما انتقلت من ستراسبورج شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذي يزور بلدًا لا يعرف لغة أهله كالأصم والأعمى، وهذا ما عاقني في الأكثر عن زيارة إنجلترا وألمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفي بحضارة هاتين الأمتين، لأنني استصعب أن أرى غيري بعيون غير عيني وآذان غير أذني.

قضيت في ڤينا يومين استرحت فيها من وعثاء السفر واطَّلعت على بعض معاهدها، إلاَّ أن الثلوج التي بلغت نحو ذراع عاقتني عن إتمام الزيارة، فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصدًا بلاد المجر، فاجتزنا عاصمتها بودابست في الليل، ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن في خلالها حتى ولا من

رؤية المحطة، وعدنا إلى قطارنا حتى تخطّينا من الغد أرض الإمبراطورية إلى أرض البلقان، ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثّل أمام خيالي تاريخ هذه البلاد، وبينما كنت أذكر وقائع العثمانيين في سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب، وأذكر تلك الدماء العزيزة التي أُهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد، ركبت معنا من أول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان في الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سيماء الحشمة والأدب، فسألت الرفيقة رفيقتها أن تغني شيئا فالتفتت إلينا وكان معنا رفيق بلغاري يعرف التركية فاستأذن في ذلك فقلت له: لا بأس .. فاندفعت الفتاة تُغني بنغمة على إيقاع غريب فاضت له نفسي بالدموع، خصوصًا وقد جاءها الغناء وهي تُفكر فيما أصابنا في هذه الديار من الشقاء، فعجب رفيقي البلغاري وقال: لعلك فهمت هذا النشيد الوطني الصربي؟ قلت: لم أفهم وإنما تأثرت من النغمة ومن أمور أخر، فسألني ما هي فلم يسعني إلا أن بُحت له بذات نفسي، ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثماني وسيماؤها عثماني وأكثر عاداتها عثمانية عذرني على شعوري بما فيه من فضل أدب.

ووقف القطار ساعتين في بلجراد عاصمة الصرب، فاغتنمت الوقت لزيارتها، وهي نظيفة لطيفة صغيرة، حرية بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التي يقطعها القطار طولاً في أقل من عشر ساعات، وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا، وهي أجمل وأضخم، مُنظمة على مثال المدن الأوربية، ويغلب الأدب أهلها، وكثير منهم يعرفون التركية، وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها، وهي أقرب إلى أن تكون مدينة شرقية منها إلى أن تكون مدينة

غربية، ويقال أنها ترتقي سنة عن سنة ارتقاءً يحسدها عليه حتى الأوربيــون الراقون، وعجبت لما سمعت بعض الألفاظ التركية يســتعملونها مــع اللغــة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوًا أثريًا يُذكرهم بأيام حكــم الأتــراك عليهم.

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغــار، ووصــلنا إلــى جســر مصطفى باشا في ولاية أدرنه أول التخوم العثمانية عند العشاء، وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون، يحكمون علــى هــذا بــالجزاء النقدي ويعفون عن ذاك، ويطلبون من هذا جوازا ومــن الثــاني أن ينبشــوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه .. والخلاصة: تغيَّرت معنا الحال من الأعلى إلى الأدنى، حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطــاط باديًا عليها في كل شيء، وإدارتها هي تلك الإدارة الاستبدادية بعينها، لم يعدل الدستور من شدتها .. ومازلنا على ذلك حتى بلغنا صــباح الغــد الآســتانة عاصمة سلطنتنا العثمانية.

❁❁❁❁❁

صقع جميل وسواحل بديعة ومناظر رائقة وسماء صافية ورفاهية مفرطة وأنس دائم، فمن المضيق إلى الخليج إلى جزر البحر إلى متنـــزهات منقطعة القرين إلى غابات ملتفة وجبال مكسوة وعيون خرارة، وكل ذلك بهجة النفس والخاطر، وهذه هي الآستانة وأحياؤها وضاحيتها.

أمَّا عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات .. لا نظام ولا شوارع منظمـــة ولا طُرق مُعبَّدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم، وغاية ما فيها من مصـــانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشئوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا، وبعض سكنات ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء.

والآستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف، والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤود وعرب وغيرهم مـــن العناصر العثمانية، ويغلب على الأتراك الاتكال لأنهم مازالوا - حتى بعد الحرية - يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد أكثر من بقية العناصر، ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم، ولذلك قلَّما ترى بينهم تاجرًا معتبرًا أو زارعًا كبيرًا أو ماليًّا مهمًا، يعيشون كلهم - إلا المرتزقة والباعة - عالة على الأمة، لا يعرفون غير تقلـــد الوظـــائف الإدارية والعلمية والقلمية والعسكرية.

فالآستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المُجسم، يعيش اهلها كالحلمة الطفيليـــة على عنق الولايات، ولكم خُرِّبت ولاية أو لواء أو قضاء ليُعمر بها أحدهم مصيفًا له على ضفاف الخليج أو في جزيرة الأمراء، ويقتني من الجواري والسراري والعبيد بقدر ما تطيب له نفسه.

ولأهل الآستانة فضل أدب ولين جانب عُرفوا به منذ القديم، فترى الواحد منهم يعاملك بأقصى اللطف والظرف حتى يرضيك، وفي باطنه - على الأغلب - يسر لك غير ذلك، وهذا الخُلق عام في عمال النظارات والإدارات الكبرى، ولولا ذلك ما انصرفت وجوه أرباب الأشغال من سكان الولايات إلى الآستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب.

صرفت في هذه العاصمة عشرين يومًا قابلت في خلالها كثيرًا من أهل العلم والسياسة، وكنت أتكاره في الاختلاف إلى المعالم والناس؛ إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريس التي رأيت فيها من كل شيء أحسنه، ومن العالم أرقاهم، ولطالما اسودت عاصمة بلادي في عيني ووددت على الأقل لو كُتب لي أن أزورها قبل الرحيل إلى الغرب وإمتاع النظر والحواس بحضارته البهيجة حتى لا أرى الانحطاط بعد الرقي ولا الظلام بعد النور.

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الآستانة مجلسنا النيابي، زرته خمس مرات، وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائبًا من جميع عناصر الدولة وأصقاعها، تجد فيهم ذا العمامة البيضاء أو الخضراء، كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال، وثلاثة أرباعهم من لابسي الطرابيش .. ولقد سمعت من أرباب العمائم مناقشات راقية لم أكد أسمعها إلا من النواب الذين صرفوا شطرًا من أعمارهم في أوربا يتعلمون ويتمرنون، ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عُشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها، فإن أربابُ العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة، خصوصًا ومجلسنا ما برح طفلاً ويُرجَى أن يكون في الانتخابات المقبلة أرقى مما هو الآن.

رأيت النظام قليلاً في المجلس، يبدأ قبل الظهر بالنظر في قانون كذا، وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل أن يُكمله، ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى

القانون أو اللائحة الأولى، وذلك لأنهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتُهر بخدمته الحرية، والشهرة قد تكذب .. وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد إلى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى إذا جاء الآن دور العمل أبانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلاً معنويًا لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكأس أو السلام على الناس.

وكل أولياء الأمر إذا حدثتهم في نقصنا والسعي لإصلاحنا شاركوك في حديثك، وربما تظاهروا بأكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك، فإذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرُّون القديم على قدمه - إن لم نقل يُزيدون الحال إعضالاً وإشكالاً - فهم فلاسفة قول لا أصحاب عمل، وكل همَّتهم يُبذلونها في أقوال يُتقنونها، لا في مظلمة يرفعونها وولاية يرقونها وإصلاح يدخلونه.

ولا أغالي إذا قلت إن عمال الآستانة الآن صورة من صور العهد الجميدي، إلاَّ أنهم يدعون الحرية وهم مضطرون إلى الإسراع بمصالح العباد بأقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي، أما الإصلاح الحقيقي فأظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يُخلقوا بعد، ونحن نكتفي من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرَّج جيل جديد يُربَّى على أدب النفس وأدب الدرس، وينشأ بعيدًا عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب واللحم والدم والعظم.

المتحف السلطاني

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية، ومررنا أمام الضرب العامرة، وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي إلى ساحة كبيرة بُني على أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا، ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه «غرفة العرض» كان يجلس فيه الوزراء والأمراء للمذاكرة والمشاورة، وفي صدره مصطبة كبيرة يُصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان مُتواريًا عن الأعين.

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا إلى قصر شامخ يُصعد إليه بسلم من رخام، جدارنه مزينة بالقيشاني، بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طراز قصر هارون الرشيد وسمَّاه «قصر بغداد»، وهو قصر مبني على الطراز الشرقي بشكل مُثمَّن منتظم، تحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء القسطنطينية وضواحيها، وبجانب هذا القصر دائرة «الخرقة الشريفة»، وفيها الرداء النبوي وبقية المخلَّفات والآثار النبوية.

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرًا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعًا وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعًا يُقال إنها من بناء السلطان مصطفى الرابع، وفي الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ويسمونه «سلطان مجيد كوشكي»، مبني على الطرز الإيطالي، وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك، ومما يجدر بالذكر في هذا القصر صفاء بلُّور النوافذ، حتى أنك تظن النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة

صفائه، وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لبسه قبل دخوله دائرة الخرقة الشريفة.

ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد في هذه الزيارة، وهنا لا يمتلك الإنسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التي لا تُقدَّر لها قيمة لقيمتها التاريخية، دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلَّفة من ثلاث غرف سُفلية وثلاث أخرى عُلوية، وأول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذي غنمه السلطان سليم الأول من الشاه إسماعيل الصفوي في حرب «جالديران» الشهيرة، وقد نصب في وسط المتحف يُوحي إلى الرائي بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف، ويصور للناظر السلطان سليم الأول ممتطيًا جواده سالاً سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الأكاسرة، ويشتبك مع صاحب العجم في حرب عوان فيهزم جيشه ويستولي على عرشه وخزائنه.

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يُصعد إليه بدرجة واحدة، وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يُبهر الناظر، شاهدنا في هذا المتحف سيف قسطنطين بالئوغوس آخر قياصرة الروم، وهو سيف مُرصَّع بالماس، أُخذ من جملة غنائم يوم فتح القسطنطينية، شاهدنا مهد السلطان محمود الثاني وهو على شكل السُّرر التي تُصنع في دمشق من الخشب مُرصَّعة بالصدف، وهذا مُرصَّع بالأحجار الكريمة، وفي المتحف ثلاث قطع من الزُّمرد: الأولى بقدر جوزة الهند، ووزنها ثمانمائة درهم، والثانية على شكل مستطيل، وزنها ستمائة درهم، والثالثة بينهما في القطع والوزن، وهناك أوان من النجف بعضها مُرصَّع وبعضها بدون ترصيع، وساعات وأوان من

العاج وبواطي من الصيني ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مُرصعة مما لا يكاد يُحصَى، وخواتم من ألماس بعضها فضة بقدر الجوزة، وإلى جانبها دوي قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مُرصَّعة، وفي جملة هذه المراوح ثلاث تُعد من نوادر المصنوعات، الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والأخرى مُرصَّعة بالياقوت والماس في وسطها ياقوته بقدر الجوزة، والثالثة مُرصَّعة بالأحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الأرضية.

ومما أمتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات، صدره وبطنه لؤلؤة واحدة، ورجلاه فيروزتان، وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مُرصَّع بالأحجار الثمينة، ورأينا أغطية مناضد من الأطلس والديباج، بعضها مُرصَّع باللؤلؤ فقط، والبعض الآخر رع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول، وهناك قلب من الماس، حجرته الوسطى بقدر البيضة، ويقال إن هذه الحجرة هي رابع حجرة في الدنيا من حيث الحجم والوزن، وقد أمتعنا الطرف برسم السلطان عبد العزيز مُجسمًا معمولاً من النحاس الأصفر مُمتطيًا جواده بقطعة كبيرة طبيعية، وآخرين صغيرين، ورأينا رسم إسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الأول عاهل الألمان.

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الأصفر، تدور فيها الأرض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يُدار باليد، كل ذلك - بل أكثره - موضوع في خزائن من البلور لا تمسه الأيدي، رأينا مُسمَّيات لا نعرف أسماءها مما يُحار لها العقل ويُدهش لها الفكر، وأنَّى لنا بابن المعتز يقف في هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحُلي والحُلل والجواهر الثمينة

والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة في هذا الكنـــز الكبير.

ليس شيء أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشــاهدتها ولا يعرف لها اسمًا، فهو إذا أراد وصفها عصته الألفاظ وضاقت بــه التعــابير، رأينا في هذا المتحف شيئًا كثيرًا كله من النادر الغريب الذي لا يوجد إلا في خزائن الملوك، ولو أردنا أن نصف كل ما رأيناه لطال بنا البحث واحتجنا إلى سفر كبير، ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الأدبية.

فمن ذلك درع مُرصَّعة بالماس والياقوت مع سيف مُرصَّع أيضًا مكتــوب عليهما هذه العبارة «هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثماني وأربعين هجرية»، وتخت معمــول مــن الباغا مرصع بالفيروز والزمرد، وهو تخت السلطان أحمد الثالث، كان يجلس عليه يوم عرفه، وفي وسطه فراش من الأطلس مُرصَّع باللآلئ بنقوش لطيفة يُصعد إليه بثلاث درجات صغيرة، وخزانة من الكهربــاء الملــون المعــرَّق أهدتها ڤيكتوريا ملكة الإنجليز للسلطان عبد العزيز، ومكتب «قنصل» كبيــر مُرصَّع بالماس والياقوت وسائر الأحجار الكريمة، أهدتها كاترينــا قيصــرة الروس للوزير الأعظم محمد باشا البلطه جي يوم واقعة «بيروت» الشــهيرة، وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه في هذه الخزينة لما فيــه مــن الأحجــار الكريمة وحُلل ملوك بني عثمان وعمائمهم موضــوعة كلهــا علــى قوالــب مخصوصة على شكل إنسان بالهيئة التي كانت عليها، ومكتوب على كل منها اسم صاحبها، وسيف السلطان الغوري عزيز مصر، وخاتم الســلطان عبــد

العزيز الذي نـزع من إصبعه يوم استشهاده، وأوسمة مختلفة أهداها ملـوك أوربا للسلاطين العثمانيين، وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية.

وعلى الجملة: فإن هذه الخزينة هي أعظم خزينة على وجه الأرض؛ لأنها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الإسلام، وكانـت فـي الدور القديم تُجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولـة وتُـدخر لأوقـات الحروب وتُسمَّى «أبج خزينة» أي الخزينة الداخليـة، يُـروَى أن السـلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية، ويُقدَّر ما صرفه في ذلك الوقت باثني عشر مليون ليرة علـى حسـاب هـذا الزمان.

أمَّا بناء الدائرة فليس من الأبنية الفخمة المُزيَّنة، بل هو بسيط جـدًّا علـى طراز التكايا، وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفًا مـن القصـور الحديثة التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح، وإنما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية، فالواقف في فنائها أن في أحد قصـورها يُمتِّع طرفه بتلك المناظر البهيجة، ويسرح فكرة في غابرها وحاضرها، ويهتز طربًا، وتتجلَّى له عظمة آل عثمان وسلطانهم، ويرى الفاتح يسوق أسـطوله على اليابسة بأعجوبة لم يسبق لها نظير، ويفتح القسطنطينية ويملـك قصـر القياصرة وخزائنهم، كما افتتح أجداده بلاد الأكاسـرة وقوَّضـوا عروشـهم، ويكون نعم الأمير الذي امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش.

وفي الحقيقة أن هذا البناء اللطيف من أجمل ما يتصوره الفكر وألطف مـا تشعر به النفوس، فهو يحتاج إلى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتـب مجيـد يصف ما تشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة

والآثار التاريخية، هذا ولا يسعني هنا إلا أن أثني الثناء الطيب علـــى نـــاظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة فـــي زيارتنـــا هذه، كما أني اشكر للأستاذ الزهراوي وعبد العزيز أفندي قولجة لي عنايتهما في هذه الزيارة التي هي من أثمن الزيارات التاريخية.

❁❁❁❁❁

المتحف العثماني

٣٤

ليس بين معاهد الآستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني؛ فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الأوربيين وأحسنًا التقليد، يستفيد به زائره تاريخ الصناعة، ولا غرو فقد ضم عاديات الأمم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والمصريين والهيتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل وأواني وآثار حجرية وخزفية وبلورية، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيَّد الله أركانها.

ومن أجمل ما يُشاهَد فيه مسلتان عثروا على الأولى في صامسون والأخرى في أزنيق، وأسد وُجد في هاليكارناس (قصبة بودروم)، ويُرد تاريخه إلى أربعة قرون ق.م، وبجانبة ناووس روماني استُخرج من دراج في ولاية اشقودرة، ومن ألطف عاديات هذه الدار النواويس التي عُثر عليها في صيدا، وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووسًا ادَّعى بعضهم أن أحدها هو ناووس الإسكندر المقدوني؛ لأن الإسكندر تُوفي في العراق وجيء به إلى سوريا، على أن روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه، ومن النواويس ناووس دُفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيدا وعليه كتابة بالخط الفينيقي، وناووس الإسكندر من أغرب ما نقش النقاشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة في قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار، ويبذلون لنا لو أردنا في

الحصول عليها مئات الألوف من النضار ونـــواويس المتحـف البريطـــاني واللوفر ليست بأعظم منها.

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم «صدراب»، أحد ولاة فارس، فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووصيمة جنازة، ومنـه يُستدل على ما وصلت إليه هذه الصناعة من تلوين الرخام فـــي أيونيـا فـــي الساحل الغربي من بلاد الأناضول من الارتقاء فـــي القـــرن الخـــامس ق.م، وهناك تمثال ثماني عشرة امراة من أعجب ما نقش النقاشون جُعلـــن علـــى أشكال منوعة، بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحـــزن واللهفة، وبالقرب منهن ١٩ قطعة من نواويس رومانية عُثر عليها في جبـــل لبنان وحِمص وبيروت.

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس «ليكيا» أي البلاد المعروفـــة اليوم بسواحل أضالية من أعمال قونيا، وهو رومي الصنعة محلي الأســـلوب، وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبي الهول عُثر عليهمـــا فـــي مدينة أورله أو ميناء قلازومن من أزمير.

قلنا إن الناووس المعروف بناووس الإسكندر هو من أبـــدع مـــا صـــنعت الأيدي، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأمريكا يعجبون بصـــنعه، وفيـــه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة، ومن الصور المزبـــورة عليهـــا وقائع الإسكندر المشهورة، ومن كتاباته ما كُتب بالخط الهيروغليفي المصري ومنها بالخط الفينيقي.

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يُرجَّح أنه رسم الحرب التي نشبت بين الإسكندر في إيسوس أو أربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م.

ومما يقع نظرك عليه في القاعة الرابعة بعض عاديات هيتية مثل أُسود وُجدت في زنجيرلي وقصورها، وتمثال يمثل أحد ملوك الهيتيين، وقاعدة تمثالين لأبي الهول، وتمثال من الحجر الأسود اسمه «أسد مرعش» كُتبت عليه كتابات هيتية، وهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن.

والهيتيون أمم مختلفة كانت في القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل في جبال الأكراد في سوريا وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهري الأحمر (قيزل أيرمق) وكديز، وأصولهم كثيرة متباينة، بل أن البلاد التي كانوا مستولين عليها هي - كما يقول المحققون - في شمالي سوريا، أي في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الأكبر إلى جبال طوروس، وقد أنشئوا على الفرات قلعة «قارغاميش» المعروفة الآن بـ«جرابلس»، وأخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) إلى أواخر القرن الثامن ق.م، وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق.م، وقد استولى على هذه القلعة صاراغون ملك أشور سنه ٧١٢، وباستيلائه عليها محا اسم الهيتيين من عالم الوجود، على أن تاريخ هذه الأمة - مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة - لم يؤثر عنها بالذات شيء يدل على عظمتها؛ لأن خطها لم ينحل حتى الآن، ويُرجى أن يُكتشف كما اكتُشف الخط المصري القديم بواسطة حجر وُجد في رشيد كُتب بالخط المصري مُترجمًا إلى اليونانية.

ومن العاديات المهمة في المتحف الأواني الزجاجية والخزفيـــة، وأحســن الزجاج ما جاء من سوريا، وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذي عُثر فيه عليها، ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يُتعذّر معرفته، وهناك قطــع من الفسيفساء عثروا عليها في «استانكوي» أو جزيرة البحر الرومي، ويُــرد تاريخها إلى الدور اليوناني، وآثار معبد أشمون في صيدا من آثار الفينيقيــين الخزفية، وآثار سوكة وإياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بـــلاد الأناضول وأكثرها يوناني، وفي قاعة أخرى أوانٍ وُجدت بالقرب من صــور ويج في ولاية مناستر في بعض المــدافن، وأوانٍ فــي ليـنــدوس (رودس) وغيرها يُرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية، ومنها ما عُثر عليه في لابسكي من أعمال كليبولي.

ومن الآثار المهمة في القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين، ومنها ما عثروا عليه في جوار القدس، ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق.م، ومـــا عُثر عليه في بحيرة حمص في الجزيرة التي حُفر فيها من القدور والأسرجة، وقد اعتبروا القسم الأعظم منها من عهد الزمن النحاسي، وفيه قطعتـــان مــن المرمر وُجدتا بالقرب من المسجد الأقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظــر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان وإلاّ فيعاقبون بالموت، وهنـــاك جحــر كلسي عثروا عليه في القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر المـــاء تحت الأرض في قناة حفرت في الصخور من نبع جيحون إلى سور القـــدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان، وينسبونه إلى الملك حزقيال أحـــد مـــن ورد ذكرهم في «سفر الملوك» من التوراة.

وليست العاديات المصرية كثيرة في المتحف، ومنها صور أبـي الهـول، وفي ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والآشورية وأكثرها ألـواح وأوانٍ وأكواب وعظام كُتبت بالخط المسماري.

ومنها ناووس من الخزف يُرد إلى عهد بابل - أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق.م - ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب فـي وقائعه مع السيتيين، ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من أعمال بغداد، ومنها ما وجد في تللو من أعمـال البصـرة، ومنها ما عثروا عليه في سيبارا أو أبي الحبة من أعمال الجزيرة.

وقد خصُّوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمُرية والحِميرية، ومن الآثـار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعهم، وإن كانت تُشـبه الصناعات اليونانية لأن مملكة تَدمُر وإن كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لأن الآشوريين قرضوا عمرانها، ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائـل ظهـور النصرانية، ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الإسكندر، واستعملت اللغة الرومية - ولاسيَّما في الرسـميات - وإن كانـت لغتهـا الآراميـة أو السريانية..

أما الآثار الحِميرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف، وعاصمة سـبأ «مأرب»، وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلي في جوار مدائن صـالح، ومملكة حمير اليمانية إنما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين، واستدلوا مـن ذلك على أن الخط الحميري يُشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وإبدال كثير.

ومن العاديات آثار قبرص، منها تمثالان للمعبودين هوكـول وأفروديـت، وأوانٍ خرفية ونذور، ومنها حُلي آشورية وفينيقية وحُلي وجـواهر وأقـراط

وأساور وقلائد وُجدت في مدينة طرواده، أي في محل اسمه الآن حصارلق من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد، وكان اسمه في القديم أيدا، وهو بين جبل قار وهللسبون، أي بين جناق قلعة وبحر الأرخبيل، وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة، ومنها ما وجدوه في ترال من أزمير وليبيا في طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وأخر في برغمة وفي نابلس.

هذه جملة أشرنا بها إلى ما حواه المتحف، وله قسم آخر إسلامي جعلوه في قصر الصيني أمام البناء الجديد، كما قسّمت مصر عادياتها إلى متحفين: متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة، والمتحف العربي .. وقصر الصيني هذا ممّا أمر بإنشائه السلطان محمد الفاتح، ولكن لم يبق عليه من آثار أيامه إلا أثر ضئيل جدًّا، مثل الآثار التي يحويها، وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط – أي القرون الخمسة الأخيرة – ومنها بعض الصيني الذي كان يعمل في دمشق ورودس وأزنيق وكوتاهية، وبعض الكاشاني المكتوب بالكوفي، ومنها ما عثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة، وكان يعمل فيها كما تعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد وأصفهان وغيرها.

ومن عاديات قصر الصيني درفنان من صنع قره مان وقونية، ومنها رحالي وقماقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين، ومنبر من صنع الرها (اورفة)، وأوانٍ خزفية وُجدت في الرقة من أعمال حلب، وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك، وأصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال أنها أموية عُثر عليها في القدس، وبعض نقوش حيوانات رُسمت على الزجاج من الأدوار التركمانية والأرتقية، وملوك بني أرتق من مماليك ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي،

حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب إلى سنة ٨١١هـ، وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة .. إلى غير ذلك من العاديات والآثار، ومما عرضوه عود طرب أو طنبورة، وهي من صنع عصور الظُلّمة أيضًا.

وبالجملة فإن العاديات القديمة التي جُعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من أهوال الدهور، أمَّا العاديات التركية والعربية الأخيرة فتافهة على الأكثر، وفي الآستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الأنكشارية مجسمة من الجبس من صنع النمسا وهم يلبسون ألبستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية.

❋❋❋❋❋

خطابنا في التربية الأوربية

٣٥

سادتي الإخوان الأعزاء:

أوعز إلى أعضاء هذا المنتدى الكريم أن أحدثكم بما رأيت في رحلتي الأخيرة إلى أوربا فلم تسعني مخالفتهم؛ لأن الطلاب أعزاء، وتبادل الأفكار معهم من أشرف المطالب، ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتي الآن للإحاطة بأطرافه كلها ولا أوقات الحضور الكرام إلى وعيه وسماعه، ولذلك أقتصر منه في هذه الليلة على الإشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسي في درس معالم الحضارة الأوربية في أماكنها، واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة، ولذا أستميح عفوكم إذا لحظتم في أقوالي شيئًا مما لم يعتد بعضكم سماعه؛ فأنا أقص عليكم شعوري، ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء.

أول ما يقع عليه نظر الداخل إلى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب في مرافق الحياة ومظاهر القوة، فيسقط لأول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك، بل يتجسَّم في عينه وذهنه ما سعت إليه ولا تزال تسعى تلك الأمم الراقية من الأخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكامل العلمي والنشوء الاجتماعي والعملي.

ولا يزال هذا النموذج من العمران يَعظُم في نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد، وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر في وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلَّى للسامع بعض التجلي، وما راءٍ كمن سمعا.

ماذا أذكر لكم أيها الإخوان من حال أوربا ومدينة الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل؟ أحدثكم بصناعاتها التي تُبهر النفس؟ أو باتساع متاجرها التي لا يُحصيها العد؟ أو بارتقاء زراعتها التي تُنادي بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية؟ أم أذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية؟ أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائيـــة؟ أم المتـــاحف والمعـــارض والكاتـــب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والأنس؟

كل هذه المشاهد كنت أختلف إليها في أوقاتها، وأجتمع برجال العلم والأدب والسياسة منذ الصباح إلى ما بعد منتصف الليل، ونفسي تتأثر بتغير المشـــاهد بحيث تملك علي مشاعري فلا أستطيع التاريق في الحسنات، كأنني ابتُليـــت بداء الاستحسان، لا تقع عيني على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصـــور ذهني أقل شيء إلاّ وأُخذ به جملة، وتغرق النفس في استحسانه وتحـــار فـــي وصفه.

ولقد كنت عزمت أن أدوّن في مفكرتي ما يعـــرض لـــي مـــن المظـــاهر والمناظر ويتردّد في صدري مـــن الأفكـــار والخـــواطر، وأحضـــره مـــن المحاضرات والخطب والدروس النوادر، ولما كثرت علي الموضوعات كَـــلّ القلم من التقييد وقلت: إنك يا هذا تكتفي متي عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق في ذهنك، وبعضه مما فيه الغناء والكفاية.

نعم، تركت التقييد على خلاف عادتي، فصدق فيَّ قول الشاعر:

تَكَاثَرَتْ الظِّبَاءُ عَلَى خِرَاشِ   فَمَا يَدْرِي خِرَاشُ مَا يَصِيدُ

لولا أن اليأس من أعظم الأمراض في الأفراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب، ولولا أنني أعتقد بأن النجـاح مقدور لكل مخلوق يعمل، وأن الأجسام تتكوّن من الذرّات، وأن من الجزئيات تنشأ الكليات، لسجلت بأن قيام الشرق العثماني وهو على نهضـته المتثاقلـة البطيئة التي نشهدها أمر متعذّر إلاَّ بعد قرون إن كُتبت له الحيـاة .. ولكـن أمامي مثال الدولة اليابانية، مملكة الشمس المشرقة، رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية في ثلاثين سنة، وفاقت من كانت تعمل منذ ثلاثمائة سنة من الـدول الغربية، فبلغت درجة عالية من الحضارة.

نعم، إن اليأس يجب ألاَّ يتطرّق إلينا، وإن كنا - وياللأسف - تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شئون حياتنا السياسية والاجتماعيـة والعلميـة والتجارية، يصرفون علناً كل ما يريدون من ضروب المعارف، ويربحـون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب، ويستثمرون شرقنا بكل ما لـديهم مـن ذرائع العلوم والفنون، ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سـيده أو جاهل مع عالم.

حضرت دروسًا كثيرة في «الكوليج دي فرانس» وهي المدرسة العظمـى التي تضم في صدرها زهاء أربعين عالمًا من كبار علماء فرنسا، يقـرأ كـل واحد منهم درسين اثنين في كل أسبوع في العلم الذي تخصّص فيه وتفرّد به طول عمره، وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد، فتدل علـى كـرم الفرنسيين في العلم.

وحضرت دروسًا في مـدارس أخـرى، ووقفـت إلـى سـماع خطـب ومحاضرات كثيرة فلم أرَ في أكثرها إلاَّ تعصبًا على الشرق وغمطًا لحقوقه.

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دُعيت إليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعدُّه الغرب للشرق، ومبلغ حكم أبنائه علينا، ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون.

فالمحاضرة الأولى كانت في قاعة السوربون الكبرى، أي كلية باريس، وهي المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسيين، فأقامت جمعية «آسيا الفرنسية» والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو إلى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسي، ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعه .. والمسيو بليو في الثامنة والعشرين من عمره، طلق اللسان آية في البيان، وهو أستاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى، شرح في محاضرته ما لاقاه في رحلته التي بدأت في ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩٠٦، وانتهت في الصيف الماضي، وأتى على ما وُفِّق إليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار، وقال إن التعصب انتشر هناك بانتشار الإسلام في القرن الحادي عشر للمسيح، فكان من ذلك التعصب أن أتى على الآثار بجُملتها، وقد قرَّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقريع، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها العربيون إلى آسيا وأفريقيا فيكونون مقدمة للفتح والاستعمار، وقديمًا كان الشاعر يقول: «السيف أصدق أنباءً من الكتب»، فإذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل إليها السيوف والبنادق، ثم تُمهد البلاد بالمعارف .. أمَّا اليوم، فيُرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولاً، ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد ادَّعَى بليو صاحب البعثة – والغالب أنه على حق فيما ادَّعاه – أن ما وُفق إلى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأُمــة فــي بــاريس بــألوف مــن المخطوطات الصينية، ومنها شيء في تاريخ الصين، كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش، فأصبحت باريس بــذلك عاصــمة الــدروس الصينية في أوربا، ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب – حتى ولا في الصين نفسها – قال: وغاية البعثة في التركستان الصينية (ولاسيَّما في مقاطعات قاشار وأرومشي) البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الإسلامي إلى هنــاك، وأنــه رأى جميع أهل التركستان من أهل الإسلام، وإذ كان دينهم يُحرِّم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة؛ إذ كانت تعبث بها أيدي المتعصبين منهم.

وقال إنه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه إلى ارتياد تلك الأصقاع أناس مــن الألمان والإنجليز واليابانيين والروس للغاية نفسها، ولكنه وُفِّق إلى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالاً بوذيًّا صغيرًا بين الصناعة اليونانية والبوذية، حريٌّ بأن يكون صلة بــين الصــناعة الشــرقية القديمة والغربية، وظفر في قاشار تحت أنقاض أحد المعابد في طبقة كثيفــة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع فــي تلــك المغــاور، ووصف تلك البقاع بأنه لا شجر فيها ولا عشب، مع أنك تمشي فيه ألوفًا من الكيلومترات، اللهم إلاَّ في بعض الواحات، وأكثر تلك الأصقاع جبال شــامخة ومنحدارت كثيرة ورمال محرقة، فكانت الحرارة في الصــيف تصــل إلــى الأربعين درجة، وفي الشتاء إلى الخمس والثلاثين تحت الصفر، حتــى كــان

الحبر يجمد في أيدي أعضاء البعثة متى أرادوا أن يُقيّدوا آثار بعثتهم، وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تُغني المتحف الطبيعي، وبصور كثيرة عُرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة، حتى لكأنهم ذهبوا بأنفسهم إلى تلك الأصقاع النائية.

هذه المحاضرة الأولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفي وسمعت بها مهانة أمتي بأذني..

والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسيين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية، فهو أول أخصائي في سياسة الشرق – ولاسيّما دولتنا – يقلب القلم بين إصبعه كما تشاء حكومته، حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحيَّة ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا إلى الشرق فيما بعد لخدمة حكومته، ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه، لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر، وقلما رأيت إنسانًا درس موضوعه وأعدَّ له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك، ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب، فكان عجبي بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبي بذلاقة لسانه، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولاسيّما بالدولة العلية منذ القديم، فقال إن فرنسا (صاحبة الفكر الأول في الحروب الصليبية) قد أتى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية أيام قوتها لتستخدمها لأغراضها، وقد جني الفرنسيون ثمار هذا الوفاق، ثم لما مضت سنون والدولة لم ترَّ خيرًا لها من تلك المحالفة نزعت

يدها من يد حليفتها، ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها إلى القريم ليحاربوا مع الإنجليز والعثمانيين جيوش الروس؛ لأن مصلحتها اقتضت ذلك إذ ذاك، وأفاض في نشأة الامتيازات الأجنبية في البلاد المصرية والعثمانية، وقال إن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها، وإن لها اليد الطولى في المسألة الشرقية - أي استقلال بلاد البلقان واليونان - وإنها لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى.

فيا إخواني ويا سادتي، أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء، ولا تذوب كمدًا وحسرة، وتسودّ الدنيا في عينيه؟

هذا بعض ما يُعدُّه الغرب للشرق، فماذا يعد الشرق الغرب؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا وديننا وآدابنا إلا إذا قاتلنا من يريدون قتلنا بالسيف الذي يقاتلوننا به، وأعني به سيف العلم، نحن يُقضَى علينا أن نأخذ من تلك المدينة الغربية التي تُدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا، نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمنًا لنستفيد ونعرف الطرق التي يجب علينا سلوكها.

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس أوربا -ولاسيَّما في مدارس باريس- فقدَّرت عددهم قليلاً جدا بالنسبة لمجموع هذه الأمة، وإني لأخجل أن أقول لكم إن عدد الطلبة البلغاريين في روسيا وألمانيا والنمسا وفرنسا وبلچيكا وإنجلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين، وإيَّاكم أن تظنوا أن جميع طلبة الأجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها، بل أن لهم الأفراد شأنًا عظيمًا في هذا الباب، وكثيرًا ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه إلاَّ وقد أتى

على آخر فلس مما عنده، وهو مغتبط بما صنع، لأنه أحرز رأس مال كبير لا يُقدَّر بالملايين، وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده.

نحن مقصرون كل القصور في إرسال أبنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون دور العلوم من بحار كلياتها ومدارسها، والعرب في هذا المعني أكثر العثمانيين قصورًا، ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سوريا في أوربا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم إلى ثلاثين طالبًا أكثرهم يدرسون على نفقتهم، فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين؟ هذا من سوريا أرقى البلاد العربية، وما أظن أحدًا من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الأقاليم العربية يدرس في مدارس أوربا، فيكون هؤلاء الثلاثون طالبًا لخمسة عشر مليونًا من العرب العثمانيين يُصيب كل مليون نسمة طالبان، وما أعظم ذلك من قصور وتقصير!

نعم، هو قصور ليس وراءه وراء، وخمود همم كاد يصدق به علينا حكم الغريب، وإني لأرجو ألاَّ تكون أقوالنا أكثر من أفعالنا؛ فإن الكلام لا أثر له بقدر الفعل، نريد معاشر العرب أن نُجاري الأمم الراقية، بل سائر العناصر من إخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الأقل في مضمار التعليم.

نتناغى بالوطنية ونندب حظ اللغة العربية، ونحن أبناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها، أليس مما يزعج أن يخاطب العربي أباه وأمه وأخاه وصديقه بغير لغته الأصلية؟ يعمل ذلك لا ليتمرَّن على تلقف غير لغته، بل لأنه لا يعرف أن يتكلم ويكتب بلسان أبيه وأمه! وقد يكون في الأكثر ممن يُفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته.

أنا إن كنت عربيًا وأحب العرب وأريد نهوضهم، أيتيسَّر لي كل ما أريد إذا ما أخاطبهم وأخطبهم وأكتب لهم بلغتهم التي يفهمونها؟ أنا إن كنت أريد الاطلاع على مجد آبائي وأجدادي، أأتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلَّفوه من آثارهم؟ وهل يتيسر لي هذا إلا باللغة التي كتبوا بها؟ أقول هذا وأنا آسف كل الأسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصورًا لا أبالي إذا قلت إن فيه العار والشنار.

أيزهد سلالة العرب الأكارم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون أكثر من علماء العرب أنفسهم؟ أيزهد العربي ابن العشرين في العربية ويتعلمها رجل أعجمي في الستين من عمره؟ وأعني به الكونت دي سارديج الفرنسي، هذا الرجل من أهل الطبقة العالية في غناه، كان والده سفيرًا في طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا، وقد كان هو موظفًا في السفارات، وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا في مدريد، ثم استقال بعدها، وهو يسكن في الصيف في قصر له في لوزان في سويسرا، وفي الشتاء في باريس، وقد قام في ذهنه منذ أشهر أن يدرس اللغة العربية للاطِّلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة، فاتخذ له أستاذًا صديقنا ووطنينا ميشل أفندي بيطار، وأنشأ يتخرَّج به فقطع شوطًا في التعلم، وإذ كانت الدواعي تضطره إلى المقام في قصره في سويسرا أكثر من باريس، وكان أستاذه لا يستطيع أن يلحق به إلى سويسرا كتب إليه يلتمس منه التماس التلميذ من أستاذه أن يبعث إليه بدروس عشرين يومًا حتى لا يضيع وقت مدة مقامه في سويسرا ويُحرم من الاستفادة والتحصيل، فإذا آب إلى العاصمة يعاود ما بدأ به.

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة، وهو في هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لا عهد له بمعرفتها، أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس به مدنيَّة آهلة، وشبان العرب أنفسهم يترفعون عن أن يقضوا ولو بعض أوقات فراغهم في إحكام لغتهم، هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم في الشرق وأمثلتها في الغرب، فهل فيكم يا شباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشي علي أقدام هذا الشيخ الفرنسي حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا - بل ديننا - عن أوربا؟ ونكون تحت وصايتها حتى في أمس الأمور بنا وأعلقها بقلوبنا؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومتانتهم هو محصول الكتاب والمدرسة، فأنتم وأمثالكم شباب هذه الأمة في أيدي اقتداركم أن تُجددوا لها شبابها إذا وَضع كل منكم نصب عينه الذهاب إلى الغرب وقضاء سنين في الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا وسعادتهم ليعلم أنني لا أغالي فيما أوردته لكم، بل إنني عاجز عن الوصف والتعريف، ولا يقعن في أذهانكم أن الذهاب إلى أوربا بعيد المنال، وأنه لا يتيسَّر إلاَّ لكبار الأغنياء، فالعيش في معظم البلاد الأوربية أرخص من الآستانة ومصر ودمشق وبيروت، والمدارس رخيصة أجورها، ولا يكاد يكون لها أجور، ومنها ما أجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكًا في الشهر، ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب أن يعدَّه أو يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده.

يا أبناء قومي ويا زهرات أمتي، أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش إلا بالزراعة ولا تحيا إلا بالزراعة خالية من عارفين بها على الأصول

الحديثة، فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في أوربا سوى طالبين اثنين، أحدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من أعمال بلچيكا، وهو رفيق بك بيضون من بيروت، والآخر في كرنيون من أعمال باريس في مدرسة كرنيون الزراعية واسمه مصطفى أفندي الكيلاني من حماة، كلاهما من أبناء الأعيان، ولهما أراض ومزارع، فنعما عَمِلا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد، ولكن أليس في أبناء سوريا - بل البلاد العربية - أحد من أبناء الأعيان يملك أراضي وقُرى غير هذين الشابين؟ بلى، إن المالكين كثيرون، ولكن محبي الدرس قلائل، هذا في فن الزراعة، فمتي يقوم منا أناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسية العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الأوربيين؟

زرت مدرسة كرنيون الزراعية - وهي على مسافة ساعة من باريس - فرأيت شعارها مكتوبًا بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه:«الأرض هي الوطن، ومن توفّر على تحسينها يخدم وطنه»، ولكن قومي - غفر الله لي ولهم - يحتقرون هذا الفن فيما أرى، فإن كنا نختلف في البديهيات فمتي نتفق في غيرها؟

زرت كرنيون، ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلح الزُرّاع ويدرس كما يدرس أبناء الأعيان في فرنسا ويحاربهم في ذكائه، وأطلعني على ما في مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية وحدائق لغرس النبات والبقول، وغابات للنزهة والانتفاع، وأدوات للعمل وحرث الأرض وكرثها.

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسي: لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيين فيها، وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لاغتنينا غنًى يُغنينا عن الهجرة وتَطلُّب الوظائف الاتكالية، فقد ذكروا إلى أن خروفًا علفته إدارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية، فبيع في أحد المعارض بسبعين ليرة، فأين خرفاننا التي يُباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر؟!

ولكن الآمال معقودة بأن نُعلِّف خرفاننا على طريقتهم، ونستثمر تربتنا على أصولهم، ونُربي عقولنا على مناحيهم، ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب سنتهم، فيكون إذ ذاك أبناء عبد القادر في التوفُّر على ذكاء التربة في نفعهم لهذه الأُمة على مستوى جدهم الذي زكَّى النفوس في عصره، وتزكية التُّربة لا تقل عن تزكية التربية، والمآل واحد.

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي أوصى بناء الأعيان وغيرهم إلى التخرُّج فيها لتُخصَّب به تربتنا بعد إجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها، والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادي وأدبي.

نحن لا نرقى الرقي المطلوب إلا إذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلاً في شقشقة الألسن والنظريات المجردة، ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت أيضًا بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز .. زرتها بدعوى من صديقي مرسي أفندي محمود أحد كُتَّاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من أسعد الأيام التي قضيتها في أرض الفرنسيين، وإني أحب أن أقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فأقول:

قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه ديمون ديمولانس، ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند الألمان والإنجليز والأمريكان، وقابل بين طرائقهم وأخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيين منها، ووضع لذلك الكتب وكَتبَ المقالات وأنشأ مجلة العلم الاجتماعي التي تدور على هذا الغرض، ومن جملة كتبه سر تقدم الإنجليز السكسونيين الذي نُقل إلى العربية فعمَّت فائدته العرب كما عمت الإفرنج.

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بأن التفّ حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها، فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيين على الطريقة الأنجلوسكسونية العملية فأسِّست لذلك مدارس كبرى عقيب دعوته الأولى: «مدرسة بروش» أُسِّست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين، وأخرى في إقليم «نورمانديا» لجماعة من كبار الصناع منها، وأخرى في «ليانكور» أُسِّست سنة ١٩٠١ وهي التي أريد أن أحدثكم عنها.

«ليانكور» قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة، وهي على نحو ساعة من باريس إلى الشمال في مقاطعة الواز، وفيها ما في سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعية الراقية الغنية، بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور، وفي قصر الدوق «دي لا روشفو كولد» الواعظ المشهور صاحب الكلمات المأثورة (الذي أسس بنك التوفير في فرنسا في أواسط القرن التاسع عشر) قامت هذه المدرسة العملية، وقصره هذا في أرض مساحتها مائتا هكتار، أي نحو ثلاثمائة فدان لم يبقَ منها إلا دائرة حشمه، أمَّا دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الأخيرة فدكوها وجعلوا

عاليها سافلها، وقد جعلت المدارس في تلك الدائرة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها.

في هذه البقعة الجميلة الواسعة – بل الأبعدية الكبيرة والحانوت الفخم – التي حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الإنجليزية والبرتغاليين والأمريكيين والمصريين، يعيشون في هذا البيت كأنهم في أسرة لا في مدرسة، وقد رُفعت عنهم أكثر القيود التي تُقيد طلبة المدارس الداخلية، واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته في المدرسة أو في حجرات الدروس، وأن يلعب بقارب في الغدير بدون رخصة أولاً، وألاّ يبتاع أي شيء كان من المدينة بدون استئذان، وألاّ يُدخل جرائد ولا كتبًا إلاّ إذا وقَّع عليها المدير، ولا يدخن، وأن يلبس ثياب اللعب عندما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر، ولا يركب دراجته إلاّ يومي الخميس والأحد، وألاّ يعبث بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها، وألا يتكلم بعد أن يُطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل أن يستيقظ رفاقه صباحًا، وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره في الأوقات التي خُصِّصت لذلك منذ الظهر إلى حوالي الساعة الرابعة بعده.

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لأنه يعرف أنه لابدَّ منها لكل عائلة كبرى، وما هذه المدرسة إلا كذلك، والمدرسة تُقسَّم إلى ثمانية صفوف أسَّسها الأستاذان الإنجليزيان هوكنسن وسكوت، ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسي، لأن قانون فرنسا يحظر على الأجانب إنشاء مدارس بأسمائهم في البلاد، وفي المدرسة نحو عشرين مُعلمًا ومُعلمة وناظرة، ورئيسة المدرسة

الآنسة باري من أقرباء أديمون ديمولانس صاحب الدعوة إلى الأخذ بطريقة الإنجليز السكسونيين في التربية، ومن أولئك المعلمين معلمان إنجليزيان واثنان ألمانيان.

ويُقسَّم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادتهم، ولا يختلط الكبار بالصغار إلاّ في بعض أوقات ساعات النهار، وهذه المدرسة تُعِد التلاميذ لنيل شهادة البكالوريا أو العالمية، ولكن على غير الطريقة التي يُحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية، وهو عن العلم العملي بمعزل، فالمدرسة تربي الإرادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تُربِّي الذهن والذاكرة.

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس، ويشترك جميع المعلمين في التعليم، ويلاحظون الدروس أيضًا، ولا يراجعون التلاميذ فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية، لأن النهار يكفي لذلك، ويتولّى الأولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شئون الحياة، وربما لا تروق أكثر الأولاد هذه الطريقة، خصوصًا وأكثر من فيها من أبناء الأغنياء والأمراء اعتادوا أن يُخلقوا وحوليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويُصعِّرون خدودهم كِبرًا من القيام به.

ويُقسَّم التلاميذ بعد الصفوف والفرق إلى بيوت مختلفة وكل بيت يُديره أستاذ ويعهد إلى النساء بالإدارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الأحداث من الطلبة، وهن يعشن في المدارسة نفسها، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات في الأسبوع لتعلُّم لعب الكوكي والكريكة بنظارة أساتذة في هذه الألعاب.. وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ومحل لتعلم الرقص والموسيقى، ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل

منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف، يتصرف فيها كما يشاء ويُرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية أكثر منها كالزراعة.

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي أحب إلى قلبه كالزراعة والتجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوي والفخار والجلد وغيرها، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه، بل يدلونه على عيوب عمله، ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه، فإذا عاد إلى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملاً من مثل ذلك، فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها، ويتولى أكثر شئونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته، فإن الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء - سواء كانوا مشاة أم ركبانًا على الدراجات - تُزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية، ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار إلى تسع للكبار ليستريحوا من متاعب النهار.

وتمتاز هذه المدرسة بأن يرحل تلامذتها بمراقبة أساتذتهم أو بعضهم إلى البلاد المجاورة كبلجيكا وهو لاندا أو غيرهما من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل الأحوال التي كثيرًا ما تصادف الإنسان في حياته، وذلك أيضًا ليتحملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام، وتتوثق عُرَى المحبة بينهم، ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة إلى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم، فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة أيام، وكل من حسنت أخلاقه ودروسه

يرحل به أيضًا كل ثلاثة أشهر مرة أو مرتين يومًا أو بعض يوم إلى مكـــان بعيد، وللمدرسة في الصيف شهران أيضًا عطلة، فتكون عطلتها السنوية مـــن حيث المجموع ثمانين يومًا، وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب إلى ســـن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك، فإذا تجاوز هذه السن تؤخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ما عدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم، فإنه يدفع أجرتها على حدّه، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا، ولكنه لا يُستكثر في مدرسة مثل هذه تُنفق النفقات الطائلة على الأساتذة والعيشة والـــرحلات، ويُطبّق فيها العلم على العمل، وتُربّي الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة.

حدّثني أحد أساتذة المدرسة قال: كان فكر مؤسسها ديمـــولانس أن تكـــون على الطريقة الإنجليزية المحضة، ولكن لم تمضِ مدة حتى انقلبـــت أوضـــاع الدروس والرياضات إلى ما يشـــبه الأوضـــاع الفرنســـية؛ لأن مـــا توهمـــه ديمولانس من أنه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيرًا، ولو كان حيًّـــا - مات منذ نحو سنتين - لرجع عن كثير مما نعاه على قومه، وعدَّ عدمه نقصًا في تربيتها وسببًا في ضعفها .. وهو قول حق سديد لأن ما يوافـــق أُمـــة لا يُطبّق بالحرف على أخرى، وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضـــاع الأمة، على أنَّ هذه النفحة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك، وأطلعت الشرق على أن التربية الفرنسية - مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها - دون التربية الإنجليزية السكسونية من وجوه، وإن كانت هذه دونها مـــن وجـــوه، ولعلَّ بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة.

تقدَّم أن تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيين وخليط مـــن البرتغـــاليين والأمريكان والإنجليز والمصريين، وهكذا شأن معظم المدارس في فرنســـا -

ولاسيَّما كلياتها الجامعة – فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط، بل يتعلم فيها الطالبات من الإناث، وأني لا أذكر أنني حضرت خطبة أو درسًا أو مجلسًا علميًا، ولا زرت متحفًا ولا مطبعة ولا إدارة جريدة إلاَّ ورأيت الفتيات سبقنني إلى تلك الأمكنة، ومعظمهن روسيات وإنجليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات، والبولونيات أكثر الفتيات الأجنبيات في فرنسا وأكثرهن عناية بتعليم اللغات الأجنبية، حتى أن الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها إلا فرنسية لكثرة إتقانها للغة الفرنسية وإجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسَّر مثله العربية ولا الغريب عن اللغة، وهن مع هذا أكثر النساء الأوربيات تفانيًا في أحكام ملكة لغتهن وحرصًا على آدابها وتلقينها.

ولقد كانت المرأة البولونية تُعلِّم أولادها لغتهم في الغابات والحقول عندما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم – إلى قبل بضع سنين – تعلُّم لغتهم لتجعلهم روسًا مع الزمن، فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون – كسائر العناصر السلافية – بعض حريتهم عقيب إنشاء الدوما الأدبي، كان من البولونيين أن فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة آلاف مدرسة يُعلِّمون فيها العلوم العالية والدروس المُنوعة بلغتهم، ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلاميذ.

فالمرأة البولونية – وإن عُنيت بتعليم اللغات الأجنبية – تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظًا أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه، حتى أنها إذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها، بحيث اضطر بسمارك أن يسن في عهده قانونًا يحظر فيه على الضباط الألمان أن يتزوجوا من البولونيات؛ إذ

ثبت له أن الوطنية الألمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الـذي أصاب مملكة بروسيا من إرث صاحب بولونيا.

فياليت شعري متى يكون نساؤنا - بل رجالنا - في هذه المنـــزلة مــن صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عُدتنا في شــدَّتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يُرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه مــن تكالــب الغرب على الشرق، فنحن إن أنصفنا لا ننــزع يدنا من الجماعة، ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسـرية والألمانية والأمريكية يُدرك سر الاجتماع والتعاضد، ويعــرف أن المركــب الكبير يستحيل أن تأتي عليه الأنواء بقدر ما تضر بالصغير، فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا من يسمع به.

تُعلمنا أوربا وأمريكا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية، فإن كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم إلى إنشاء جامعة أوربية واحدة، وبعضهم إلى إنشاء جامعة أمريكية واحدة، وبعضهم إلى إنشاء جامعة أمريكية واحدة، وبعضــهم إلى إنشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحدة، أفلسنا نحن يا أبناء العثمانيــة أحرياء بأن نــزيد في تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعي العقــلاء منا؟ طال المقال، وبتُّ أخشى عليكم الملال، فهل تأذنون بأن أختمه بجملة واحــدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين، وهي الأخلاق التي كانت من أعظم الوسائط في ارتقائهم، كما كان نقيضها واسطة في انحطاطنا، وذلك أنني تبينت بالاختبار أن الإفرنج أكثر تفكرًا منا في مصادر الأحوال ومواردها، فهم لا يقدمون مثلنا علــى أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه، فالصانع في الغالب لا يتطال إلى أن يكون سياسيًا، والمحامي لا يعمل في الزراعة، وهكذا اختصَّ أهل كل طبقــة بطبقــتهم،

وتفرُّد كل عالم بما يعلم ولم يتعداه؛ فالاختصاص أو التخصص هو الذي كان واسطة نجاح الغرب، ودعوى معرفة كل شيء هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق.

الغربي يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه في مدرسته وحصَّله من حرفته، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه، وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية، أما نحن فنسارع في الهبوب - كما نسارع إلى الرقود - فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك.

الغربي يُهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لأمته ولنفسه، ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم - بل وجميع حضارتهم - فخمة خالدة، وكانت مصانعنا ومعاهدنا - وسائر أعمالنا - مختلة لا تدوم إلا بدوام من عمل لها أول مرة، فإذا ما ذهب تذهب بذهابه.

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لأن من عادته أن يحسن الانتفاع بكل شيء، ونحن من عادتنا أن نهزأ في الأكثر بكل شيء.

الغربي يُدخل الإصلاح إلى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سُنة النشوء في عالم الكون والفساد، ونحن نحب أن نطفر طفرة في إصلاحنا، والطفرة محال؛ لأن سُنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند.

الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له، ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم.

الغربي معتدل على الأكثر في عامة أحواله، ونحن أميل إلى الإفراط والتفريط.

الغربي عبد الواجب، ونحن قلما نقوم بفرض أو واجب، فالغربي كما أحسن تقسيم الأعمال والتخصص فيها أحسن استخدام الوقت إحسانه لاستخدام عناصر الطبيعة، فجدُّه جد ولكن في أوقات الجد، وهزله هول ولكن في أوقات الهزل،

ونــزهته نــزهة ولكن في أوقات النــزهة، وعمله عمل محض ولكن في زمــن العمل.. والشرقي - ويا للأسف - ليس كذلك.

أحسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وإنكار النفس، فهو يعتمــد على كفاءته أولاً ثم على محيطه وأمته، وقد يهتم في الأكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه، وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الأعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الأرض سلطانها، فالله أسأل أن يهب هذا الشــرق المحبــوب «نفثة» من تلك الروح العالية، وهذا لا يُرجى لنا إلا بتكثير سواد أمثالكم يا طــلاب المدارس العالية؛ فطلاب المدارس العالية هم - ولا جرم - أهل المطالب العاليــة، فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التي تعلّقها عليكم أمتكم .. نضّر الله وجوهكم وبيّض بكم وجوهنا.

❁❁❁❁❁





الناشر
مكتبة ومطبعة الغد
٢٣ شارع سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة ت ٣٢٥٠٢٠٢ ج م ع